خليـــل مطـــران

خليل مطران

شاعر الذات والوجدان

تأليف : دكتور أحمد درويش

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت - ص . ب 2022 برقيا دار شادور - القاهرة - ت : 3923525 - 3936743 - فاكس : 3909618

جمع وطبع : عربية للطباعة والنشر
العنوان : ٧&١٠ ش السلام - أرض اللواء - المهندسين
تليفون : 3256098 - 3251043

رقم الإيداع : 18751 / 2000
الترقيم الدولى : X - 644 - 270 - 977
الطبعة الأولى : شوال 1421 هـ - يناير 2001 م



المحتويات

***

الشعر ديوان العرب . . وسجل حياتهم . .
والشعراء هم أصحاب الرأى والتعبير على مرِّ العصور . .

ومن مظاهـر تقدير العرب للشعراء أن القبيلـة كانت إذا نبغ فيهـا شاعر أتت القبـائل الأخرى فهنأتها ، وصنعـت الأطعمة ، واجتمع النســاء يلعبن المزاهر ـ كما يصنعون فى الأفراح ـ لأن الشاعر كان لسان القبيلة ، وهو الذى يمثل الحماية لأعراض الناس ، وهو المدافع عن أحسابهم ، والمُفاخِر بمآثِرهم . . والمُمجِّدُ لذكرهم .

وكان العـرب لا يهنئون إلا بغلامٍ يُولَـد ، أو شاعر ينبغ فيهـم ، أو فرس تنتج . . !

وقـد أجمع دارسو الأدب العـربـى على أن الشعر يمثـل جـوهـر الثقافـة العربية ، حتـى أن أية دراسة عن الشعـر العربى يمكن أن تكـون دراسة عن الثقافة العربية والوجدان العربى معًا .

وقد اعتاد المؤرخـون أن يقسّموا عصور الأدب العربى إلى مراحـل متتالية . . وربما اعتمد هذا التقسيـم على النظرة السياسية . . أو التغيُّر السيـاسى داخل المجتمع ، مما يؤثر ويتفاعل مع تطور الشعر وأساليب تعبيره . .

ـ فالعصر الجاهلى مثلاً يبدأ قبل ظهور الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة ، وينتهى بظهور الدعوة الإسلامية . .

ـ ويبـدأ العصر الإسلامى منذ ظهـور الدعوة . . وينتهى بـانتهاء عصر الخلفاء الراشدين . . وظهور الدولة الأموية سنة ٤١ هـ .

ـ ويبدأ العصر الأموى منذ ولاية معاوية بن أبى سفيان سنة ٤١ هـ حتى قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ .

ـ أمـا العصر العباسى الأول فيبـدأ بقيام الدولـة العباسية سنـة ١٣٢ هـ حتى قيام دولة بنى بويه عام ٢٣٤ هـ .

ـ ويبدأ العصر العباسى الثانى منذ قيام دولة بنى بويه حتى هجوم المغول على بغـدادسنة ٦٥٦ هـ وانقسام الـدولة العـربية الكبرى إلى دول صغـرى وإمارات شرقاً وغرباً .

ـ ثـم يبدأ عصر النهضـة الحديثة منـذ قيام دولـة محمد على حتـى وقتنا الراهن . .

وهـو تقسيم لا نظـن أنه يخضـع لحدود قاطعـة فاصلـة لكل عصر تبـدأ وتنتهى بقيام دولة وسقوط أخرى . . ولا نظن أيضاً أن الأدب يمكن أن يغير جلده هكـذا بين يوم وليلة ـ كما تتغير الظروف السيـاسية ـ وإنما يعنـى هذا التقسيـم أن ملامـح الأدب فى عصر مـا تستكمل مقـومـاتها فى ظل ظـروف سياسية واجتماعية معينة ، وتخفت بعض مـن ملامح أو يضاف إليه ملامح أخرى فى عصر تالٍ . . وهكذا !!

ولابد أن الشعـراء الذين أخلصـوا لفنهم كانـت لهم مواقفهم المتبـاينة فى ظلال هذه العصور المتتالية ، فلم يكن ذكرهم خافتاً ، ولا لونهم باهتاً ، ولا صـوتهم ضائعـاً فى زحـام التحـولات السياسيـة المختلفـة ، ومـن ثَمَّ تنـوع ولاؤهم ، وتميزت أساليبهم ، وتعددت مذاقاتهم ورُؤَاهُم وتجاربهم ، فتجاوزوا سَمْـتَ العصر ، واخترقوا حـاجِـزَ الزمـن ، ليصلوا إلينـا شـامخين قادريـن معبرين عن جوهر الإحساس الإنسـانى ، على حين أسدل الزمن على مَنْ لم

يمتلك هـذه القدرة عبـاءته السوداء ، وطـواهم فى جُـبِّ النسيان ، لأنهم لم يفلحـوا فى التعبير عن عصرهـم ، ولا استطاعـوا أن يصلـوا إلينا كما وصـل غيرهم .

ولا شك أن القـارىء المعاصر ـ فى زحـام الحياة الضـاغطة المهمومـة ـ فى حاجة ملحَّة إلى الاقتراب من عالم الشعر ــ قديمه ومعاصره ـ فى أبرز نماذجه وأفضل شعرائه ، وتنوع مذاقاته ، واختـلاف بيئاته ، لكى يقف على عظمة هذا الفن العربى الذى تقدَّمَ كُـلَّ شىء ، وأحرز السبق على غيره من الفنون العربية .

ونعتقد أن هذه العظمـة هى جزء من عظمـة التاريخ العربـى والحضارة العربية . . وهـى أيضاً بطاقة عبور صادقـة إلى كل ما هو ساطـع وناصع فى السماء العربية ، تتحدى الغيم ، وعَصْـفَ الريح ، واعتداء الساخطين على مقدرات هذه الأمة العريقة .

ولأن الشـاعـر شـاهـد على عصره ، فقـد أولينـا هـذا المعنـى اهتمامـاتنـا واختيـاراتنا ، فـوقفنـا فى بـاب كل عصر نطـرقـه ، ونستخلـص منه كنـوزه الشعرية التى تمثله خير تمثيل .

وآثرنا فى خطتنا أكثر من عنصر يكمل دائرة الفائدة . . أهمها :

أولاً : أنها سلسلة مـوجهة للشبـاب والناشئين . . لهذا فـإنها تتخذ منهجاً مختلفاً يبتعد ـ بقدر الإمكان ـ عن المنـاهج الأكاديمية التى قد يعافها ذوق أولادنا .

ويلتزم هـذا المنهج تقـديم الشاعـر من خلال سيرة حيـاته بـأسلوب مبسط يجمع بين الدراما والسَّرد والنـص الشعرى . . يهدف إلى كسر الملل والرتابة . . وتقريب القارىء الشـاب إلى عالم الشاعر الإنسانى والفنى معاً . . بحيث يخرج القارىء من الكتاب بمعرفة غير محدودة

بالشاعر وعصره وتجربته الشعرية وأثرها فى مسيرة الشعر العربى . . وكيف نقل الشاعر بحسّه وقدرته مشاعره وأفكاره إلى عصره ومجتمعه بل إلى عصرنا الراهن فى إيجابية وعطاء ممتد متجدد .

ثانياً : أن يكتب عن هؤلاء الشعراء أساتذة وأدباء وشعراء ممتازون ، على درجة عالية من الرغبة الداخلية فى هذه المشاركة ، والإيمان العميق بجدوى هذه الرسالة ، والقدرة على العرض والتبسيط والالتزام بخطة السلسلة .

ثالثاً : أن تبدأ هذه السلسلة بالشعراء المعاصرين ، باعتبار أن القارىء المعاصر قريب إلى حسّ هؤلاء الشعراء وتجاربهم ولغتهم وخيالهم . . ثم نعود القهقرى إلى العصور السابقة ، وقد تسلح القارىء بذخيرة من الفهم والتذوق تجعله يقتحم تلك العصور فى شغف وإقبال .

رابعاً : ألاّ تقتصر هذه السلسلة على تقديم شعراء بعينهم فى بيئة بعينها ، وإنما هى تنظر إلى خريطة الشعر العربى من المحيط إلى الخليج فى وحدة فنية مترابطة ، تحقق للقارىء المعاصر هذا الحسّ العربى الممتاز الذى لا يدانيه حسّ آخر فى أى منطقة من العالم .

. . . .

ولابد أن المهمة على هذا النحو صعبة ودقيقة . . !

لكننا على يقين أن الإخلاص والإيمان بجدوى ما نُقبل عليه كفيلان بتذليل كل الصعاب ، وتيسير كل الدروب العسيرة ، وتقدير كل قاصٍ وبعيد .

ولا نملك فى نهاية هذه العجالة إلا أن نشكر من كل قلوبنا كل من أسهم فى إذكاء نار الحماس لإصدار هذه السلسلة الجميلة من الأساتذة والأدباء والشعراء المشاركين .

كما لا نستطيع أن نغفل ترحيب الصديق الناشر محمد رشاد . . حينما تقدمنا إليه بهذه الفكرة ، وكيف أصر على إخراجها بهذا المنهج الخاص ، الذى نتمنى أن يكون مختلفاً عن أى منهج سابق .

أما الصديق العالم اللغوى المدقق الأستاذ محمد فتحى أبو بكر . . فله من القلب كل الدعاء وكل الشكر على ما يبذله من جهد خَلاَّق متفانٍ وراء كل كلمة ، وكل جملة ، وكل إضافة جيدة .

ولك أيها القارىء الشاب . . هذا العمل الذى يمثل عصارة قلوب الذين شاركونا بالحب والعطاء . !

والله الموفق ،

أحمد سويلم

الحديث عن « خليل مطران » ، هو حديث عن تجربة كاملة من تجارب الثقافة العربية الحديثة امتدت نحو ثلاثة أرباع القرن - فشملت الربع الأخير من القرن الماضى والنصف الأول من القرن العشرين ، وامتدت آثارها فيما بعد ، وجذورها فيما قبل - امتداد أسباب الخلية فى سائر أجزاء البدن .

كان «مطران» ممثلاً جيدًا لتجربة المثقف العربى المعاصر فى استيعاب تراثه الأدبى ، والسيطرة الإيجابية الخلاقة على لغته القومية ، والعبور إلى آفاق الثقافات الأخرى يمتص من رحيقها ، ويتفاعل معها ، وينقل منها الصالح المفيد إلى لغته وثقافته ، دون أن يفقد هويته ، أو تُمحى شخصيته ، أو يعوج لسانه ، وكذلك كانت رحلته مع الثقافات الغربية - والفرنسية منها بوجه خاص - رحلة مؤثرة فى تاريخ الأدب المعاصر ، شعرًا ونثرًا ، وقد تجلى أثرها فى تطوير الشعر الغنائى ، والمقالة الأدبية ، والدراسة النقدية ، والصحيفة اليومية ، والمجلة الأسبوعية ، ثم دفعت المسرح العربى الوليد آنذاك ، دفعة قوية من خلال اتباع منهج فى الترجمة الأدبية الرصينة الجادة ، التى يقف فيها جهد المترجم الأديب موازيًا لجهد مؤلف النص المترجم ، فيبقى عمله إضافة حية للغته وأدبه ، ويظل صالحًا لجيله وللأجيال اللاحقة

له ، ويصمد حين لا تستطيع الترجمات السريعة الصمود أمام التدقيق أو التحقيق ، أو تعاقب الأذواق ، وتغير الزمان ، وهكذا ظلت ترجمات «مطران» لروائع شكسبير ، وفكتور هيجو ، وكورنى ، وغيرهم من كبار كُتَّاب المسرح العالمى موضع تقدير ، ومصدر إمتاع متجدد حتى اليوم . . .

لكن « مطران » كان قبل هذا كله نموذجًا لتجربة إنسانية جميلة فى تثقيف النفس ، ومحبة الوطن فى معناه المحدود والمتسع ، والصمود أمام المحن ، وتجاوزها لتحويلها إلى ألوان من النجاح فى مجالات أخرى ، وتحويل الأفكار النبيلة المجردة إلى واقع حى محسوس ، على الرغم من كل الصعوبات والمشاق، وطول النفس فى معايشة الفكرة والوفاء لها، وإن طال العهد ومل المتعجل، والتسامح الجميل حين تختلف العقائد ، أو الأفكار ، أو اللهجات ، أو الأذواق ، أو وجهات النظر ، فيتحول ذلك فى النفوس الطيبة الراقية ـ وقد كان «مطران» ممثلا جيدًا لها ـ إلى مصدر تنوع وإثراء ، على حين يتحول فى النفوس الضعيفة ذات الآفاق الضيقة ، إلى مصدر شقاق وتناحر وإفساد لما خلق الله من قيم الحق والخير والجمال .

لقد أتيح لى أن أصحب « مطران » قبل نحو ربع قرن ، فى عمل أكاديمى خلال مرحلة إعداد رسالة الدكتوراه فى جامعة السربون ، ومن خلال اللغة الثانية التى أحبها « مطران » بعد العربية ، وتأثر بشعرائها وكُتَّابها ، وتاريخ أبنائها ، ونقل كثيرًا من روائعها إلى اللسان العربى المبين ، فأمتع من خلال ذلك ملايين من عشاق هذه اللغة فى جيله والأجيال اللاحقة له .

لكننى أريد هذه المرة أن أصحبه فى لغته الأولى التى كان من أبرز فرسانها فى القرن العشرين ، وأن أقدمه ـ كما تهدف هذه السلسلة ـ إلى القارىء العام

لا إلى القارىء المتخصص ، كما كان هدف الدراسة الأولى ، وتلك فى ذاتها مهمة ليست بالميسورة ، كما قد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى ، لأن كثيرًا من مشاهير الأدباء حين يتم الابتعاد فى أثناء الحديث عنهم عن الجوانب العميقة المتخصصة التى كان لهم فيها باع طويل ، ربما لا يبقى بين يدى القارىء والكاتب شىء كثير يثير الاهتمام ، لكن عمق تجربة « مطران » الإنسانية وصدقها ، وتعدد جوانبها ، جعل الكتابة للقارىء العام تعادل فى ثرائها ومتعتها الكتابة عنه للقارىء الخاص ، وربما تساعد فى إنعاش الذاكرة لاستحضار فترة من فترات اللغة الجميلة والثقافة الظامئة المتطلعة إلى كثير من الآفاق ، سواء فى عمق تاريخها العريق أو فى تجارب الثقافات الأخرى الحية والغنية ، وهو الظمأ الذى أتاح لهذه الثقافة العربية الصمود والبقاء ، وهو وحده الذى يمكن أن يتيح لها اليوم البقاء فى عصر شرس ، تكشف فيه عن أنيابها كل عناصر الفناء .

والله من وراء القصد . .

د. أحمد درويش

القاهرة - فى ٣ ديسمبر ١٩٩٩م

فى أسرة عربية عريقة ، يمتد نسبها إلى قبيلة الغساسنة ، أصحاب الإمارة العربية المسيحية فى عصر ما قبل الإسلام ، وُلد « خليل مطران » فى مدينة بعلبك ، المعروفة بوجهها العربى ، وعراقتها السامية منذ أمدٍ بعيد.

وكان « خليل مطران » يعتز - فيما يعتز - بهذا الخيط العربى الذى يصله بأمراء بنى غسَّان ، ويزهو به عند ما يدفعه الإيغال فى الثقافة الأوربية التى كان أحد رواد الاغتراف منها ، والتأثير فى الأدب العربى من خلالها - إلى الإيغال المقابل فى اللغة الأم ، ثقافة وتقاليد ، وفى الحياة المحيطة بهذه اللغة سلوكاً وعاداتٍ ، وها هو ذا ذات يوم تُهْدَى إليه عباءةٌ عربية ، وهو الذى يتزيا بزى الإفرنج منذ نعومة أظفاره ، فيلف جسده بالرداء العربى وينظر فى المرآة ، فتقفز إلى ذهنه صورة أجداده الأقدمين من الغساسنة ، ويوحى له المشهد بأبيات من الشعر تتجاوز دلالاتها التشابه فى السمت الخارجى إلى التشبث بمقومات الجوهر الداخلى ، يقول «مطران» :

ألا يا بنى غسان من ولد يعرب وأجدادكم أجداديَ العظماءُ

أخوكم وقد أضحى غريبًا بزيِّهِ أعادَ له السَّمْتَ الأصيلَ رداءُ

قفوا وانظرونى بالعباءة رَافِلاً مهيبًا وبى فى مشيتى خُيَلاءُ

من هذه الأرومة العربية الأصيلة وُلِدَ «خليل عبده مطران» فى بعلبك بسورية سنة ١٨٧٢م فى أسرة أدبية متدينة ، محافظة ، تنتمى الأم فيها إلى جذور فلسطينية ، حيث كان جدها معاونًا لوالى «عكا» ، وهاجر إلى لبنان ، فكان من أحفاده «ملكة» أم خليل فيما بعد ،وكانت صاحبة موهبة شعرية ، ينساب الشعر على لسانها بدون تعلم أو احتراف ، ولا شك أن بين موهبتها الطبيعية تلك والمكانة الشعرية التى حظى بها ابنها فيما بعد صلة قوية .

أمّا أبوه فكان تاجرًا ، وكان مع ذلك مولعًا بالأدب ، قارئًا له ، يحتفظ فى بيته بمكتبة صغيرة تضم بعض أمهات كتبه ، ومن بينها ديوان «ابن الفارض» المتصوف الإسلامى ، الذى كان يحرص الأب ـ وهو المطران المسيحى ـ على أن يغرى ابنه بحفظ بعض قصائده ، وكما يقول «مطران» نفسه :

«أحببتُ الشعر منذ الصبا ، فإنى لم أكد أتم تعليمى الأول حتى أحضر لى أبى ديوان ابن الفارض ، وكان يغرينى بحفظ قصائده لأزداد معرفة باللغة ، فجعلت أحفظها وأطرب لها ، وإن كنت لا أفهم معانى بعض أبياتها وكان ذلك فى «بعلبك» ، فلما صرتُ فتًى ، وسافرت إلى «زحلة» ، أثّر فى نفسى ما لواديها من جمال رائع ، ثم سافرت إلى «بيروت» فى طلب العلم ، والتحقت بالكلية البطريركية ، وهنا لك بدأت أول محاولة فى نظم القريض ، فنظمت قصيدة طويلة أسميتها «الرائية الكبرى» ، (تقليدًا لاسم قصيدة مشهورة لابن الفارض ، هى «التائية الكبرى») وكانت كلها فى مدح والدى والإشادة بفضله ومناقبه ، وأرسلتها إليه من بيروت ، لينشرح صدره ، ويُسَرَّ بعبقرية ولده !! وانتظرت منه المثوبة على هذه القصيدة ، ولكنه بدل أن يجيزنى ويشجعنى ، بعث ينهانى عن صناعة الشعر ، وينصحنى بالتفرغ لدروسى العلمية ، ولا أزال أذكر من خطابة قوله : «فيا ولدى ـ برضانا

عليكم ـ لا تتعاطوا هذه الصناعة ، لأننا ما وجدنا شاعرًا على جسمه قميص »[1].

وإذا كانت الرائية الكبرى هى باكورة ما كتب «خليل مطران» فى صباه المتأخر، وقُوبل بتحفظ من والده، فإن صباه المبكر كان قد شهد «هواجس» الشعر المزعجة التى كانت تقابل بتعنيف من والده، وكان ذلك وهو فى الثامنة من عمره، كان يتعلق ببعض القصائد التى حفظها بدون فهم، وملكت عليه وعيَه ولا وعيه، فهى تطارده فى يقظته ومنامه، فلقد كان «وهو فى الثامنة من عمره ينام فى الغرفة التى تنام فيها أخته، وكان غالبًا ما يقوم فى الليل ليلقى محفوظات من الشعر عن ظهر قلب، وهذه المقتطفات من ديوان ابن الفارض، أو أبى تمام والبحترى، وكان الخليل يرددها بصوتٍ عالٍ، يقلق أخته الهانئة فى نومها، وأخيرًا شكت أمرها إلى والده، فما كان منه إلاَّ أن وَبَّخَهُ على صنيعه هذا ، وقال له: « عايز تعمل شاعر، وتضرب على الرباب. . »، فأجابه الخليل قائلاً : «ليس الأمر بيدى يا والدى، بل آتيه عفوًا، وأنا نائم »[2].

وإذا كانت هذه القصة تعود إلى طفولة «مطران» وهو فى الثامنة، وتوحى بتأصل هواجس الشعر لديه، فإن قصصًا أخرى تعود إلى الثالثة من عمره، وترد على لسانه أو على لسان بعض المحيطين به، وتوحى بتأصل عناصر الشاعرية الأخرى لديه، مثل: دقة الملاحظة، والنزوع إلى الجمال، ومن ذلك ما يرويه أخوه من أن «خليل» وهو طفل فى الثالثة كان يلعب مع ابنتىّ عمه

(١) انظر : طاهر الطناحى، خليل مطران كما عرفته، ص ٩٨، ضمن إصدار «مهرجان خليل مطران»، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، القاهرة ، سنة ١٩٥٩ .

(٢) من رسالة بعث بها ألبير مطران، أخو الشاعر ، إلى الدكتور جمال الدين الرمادى، صاحب كتاب «خليل مطران شاعر الأقطار العربية» ، دار المعارف ، القاهرة، سنة ١٩٧٢ .

خارج البيت، وكان الجو ماطرًا، والبرد شديدًا ، ولشدة ما لعبوا تعبوا، فدخلوا البيت وجلسوا قرب النار بقصد التدفئة ، ودبت الحرارة، وتوهج الاحمرار على وجنات الفتاتين ابنتىّ عم الخليل، وكانت إحداهما بيضاء والأخرى سمراء، فكان جمال البيضاء فى شدة ظهور التوهج على وجنتيها، وكان جمال السمراء فى خفوت ذلك الظهور ، ولاَحَظَ الصبى ـ ابن الثالثة ذلك ـ وقام ليعبر عن ملاحظته أمام أهله بلغة الطفولة، ثم قَبَّلَ الفتاتين معًا وسط دهشة الحاضرين [١].

ودقة الملاحظة المبكرة، وقوة الذاكرة ، ظواهر مألوفة لدى من سيصيرون فيما بعد من نوابغ الأدباء، ويذكر « أندريه موروا » فى كتابه عن التراجم والسير الذاتية، أن بعض هؤلاء الأدباء يحتفظون بذكريات شديدة الإيغال فى الطفولة المبكرة، فـ « تولستوى» يتذكر بوضوح المشاعر التى مر بها عندما كان عمره ستة شهور، وكيف أنهم كانوا يضعونه فى وعاء خشبى فى أثناء الاستحمام، وهو يتذكر رائحة الخشب الممزوجة بالصابون، والشعور بقدميه تنزلقان على جدار الوعاء المملوء بالرغوة. . وإدموند جوس فى كتابه أب وابن يستحضر ذكريات واقعية محددة عن طفولته. . وجوته يتذكر جيدًا نزهاته الطفولية فى «فرانكفورت»، ومن الغريب أن نلاحظ أن الطفل «جوته» كانت لديه مشاعر الرغبة فى أن يغوص فى ألف حياة مختلفة، وكان وهو ينظر إلى الحدائق الصغيرة فى «فرانكفورت» يحمل من الانطباعات ما يحمله «رجل الأدب» [٢].

على هذا النحو كانت تحمل مرحلة الطفولة والصبا المبكر عند «خليل

(١) المرجع السابق ص ١٦ .

(٢) فن التراجم والسير الذاتية : أندريه موروا، ترجمة وتقديم وتعليق : د. أحمد درويش ، ص ٩٨ ، المشروع القومى للترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٨ .

مطران» كل ملامح الشاعرية الأولى ، من موهبة فى الجذور ، تتمثل فى شخصية الأم الشاعرة، وثقافة فى الأصول، تتمثل فى الأب القارىء المشجع ، حتى وإنْ تحفَّظَ أو تردد ، ووجدان مستوعب، تختلط فيه القراءات الشعرية الأولى، فتهزه فى أعماقه هزًّا عنيفًا يمتد إلى ساعات النوم ، وحواس مستيقظة ، تلتقط الجمال ، وتدرك الفروق ، ووراء هذا كله أرومة عربية عتيقة ، تعتز بالانتماء إلى بنى غَسَّان ، وبعلبك التى تغنى بها امرؤ القيس فى الزمن القديم .

* * *

شهدت لبنان خلال القرن التاسع عشر كثيرًا من ألوان الاضطراب فى العلاقات بينها وبين الدولة العثمانية التى كانت تسيطر على معظم أرجاء العالم العربى وتحكمه باسم الخلافة الإسلامية، وقد كانت علاقات الدولة العثمانية بأقاليمها تتسم بكثير من مظاهر الاستبداد والاستغلال والتحكم المركزى الذى يسعى إلى إسكات الأصوات التى تتحدث عن النزعة القومية أو الشخصية الوطنية أو الحكم الذاتى ، وتعتبر أصحاب مثل هذه الدعوات أعداءً بالضرورة ، يطبق عليهم ما يطبق على المتمردين والعصاة الخارجين.

غير أن هذا لم يمنع كثيرًا من الدول الخاضعة للدولة العثمانية آنذاك أن تعلن عن ثورتها وتمردها وتحصل على لون من الحكم الذاتى ، إن لم يكن الاستقلال التام ، ثم تدخل بعد ذلك فى حرب مع الدولة العثمانية ذاتها فتنتزع منها بعض أقاليمها وتكاد أن تزيل إمبراطوريتها لولا تدخل القوى الكبرى لإعادة التوازن الذى تحرص عليه هذه القوى ، وهذا ما حدث مع مصر على نحو خاص منذ مطالع القرن التاسع عشر ، حتى ساعدت الحركة الشعبية المصرية «محمد على» والى مصر من قبل الدولة العثمانية على الاستقلال النسبى بمصر ، وتحويل مصر إلى دولة حديثة ، وتكوين جيش

قوى لها ، بدأ فى مناهضة الدولة العثمانية ذاتها وقاد حملات ضدها ، وكان من أكثرها تأثيرًا فيما نحن بصدد الحديث عنه حملة إبراهيم باشا بن محمد على إلى بلاد الشام ، واستقراره فيها زمنًا ، ازدادت فيه الروح الوطنية اشتعالا، والنزعة إلى الاستقلال وضوحًا ، والتقارب الثقافى بين أهل الشام - وأهل لبنان خاصة - ومصر قوة وتنوعًا .

كان للمسيحيين فى لبنان أسباب إضافية تدفعهم نحو النزوع إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية وكراهية الأتراك، فإذا كانت الحجة المعلنة من قبل العثمانيين للمحافظة الشكلية على رابطة الولايات التابعة لها هى رابطة الإسلام، فتلك الحجة منتفية فى حالة نصارى لبنان ، وخاصة أن مفهوم الغطرسة التركية لتطبيق الإسلام لم يكن يستفيد من هذه الروح السمحة التى امتاز بها التاريخ الإسلامى فى معاملة أهل الديانات الأخرى، والمسيحيين على نحو خاص، وهى الروح التى جسَّدتها الآية الكريمة : ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[1].

وقد كان جزء من رد الفعل لدى نصارى لبنان هو التمسك المقابل برابطة العروبة، باعتبارها عنصرًا يجدون فيه ذواتهم وانتماءهم لأرضهم، ولعل هذا يفسر فى جانب منه، هذا الحرص الواضح من أدباء المسيحيين فى لبنان لذلك العصر، على سلامة اللغة وحُسن أدائها، وتبحر كثير منهم فى علوم العربية، بما فى ذلك العلوم الإسلامية، كما كان الشأن مع أسرة اليازجى، الشيخ نصيف اليازجى، وابنه إبراهيم اليازجى الذى كان أستاذًا لـ «خليل مطران»، وكان متبحرًا فى علوم الفقه الحنفى من بين فروع أخرى فى الأدب ، وكذلك خليل اليازجى الذى كان من رواد التجديد والترجمة .

(١) سورة المائدة ، من الآية ٨٢ .

غير أن الفترة التى قضاها إبراهيم باشا بن محمد على فى لبنان أظهرت ولاء اللبنانيين لإبراهيم وكراهيتهم للحكم التركى، وتمثل ذلك فى بعض حركات التمرد والثورة، لكن لم تلبث القوى الكبرى أن أجبرت محمد على وجيشه على التراجع إلى حدود مصر، بعد أن هدد الدولة العثمانية نفسها، وبدا الجيش المصرى كأكبر قوة فى المنطقة، فتحالفت إنجلترا وفرنسا مع تركيا لإلحاق الهزيمة به .

وعندما تركت الجيوش المصرية لبنان ، ظل أهلها على تعلق بالمصريين، ورغبة فى استمرار نهج المطالبة بالحقوق ، فكانت أن دبرت القوات العثمانية مذبحة رهيبة سنة ١٨٦٠ ضد نصارى جبل لبنان ، وقد راح ضحيتها المئات منهم ، وروّع آلاف الناس ، وَفَرَّ كثير منهم إلى مصر وغيرها من الدول ، حاملين معهم نقمتهم على الاستبداد ، ومفجرين من خلال ثقافتهم العربية والأجنبية ثورة فى كثير من مظاهر الثقافة، وخاصة فى مجالات الصحافة والمسرح والترجمة [1]، وهى الجوانب التى سوف نرى كيف أسهم فيها «خليل مطران»، وجعل نفسه امتدادًا لهذا المنهج الثقافى لنصارى الشام فى الأقطار التى رحلوا إليها ، وخاصة فى مصر .

وقد ظلت أسماء، مثل: جورج زيدان، وسليم تقلا، وبشارة تقلا، وأديب إسحاق، وسليم النقاش. . وغيرهم ، محفورة فى ذاكرة بداية النهضة الصحفية والمسرحية والأدبية عامة فى مصر ، فى هذه الفترة المهمة من القرن التاسع عشر، والتى شهدت مولد «خليل مطران» .

فى هذا المناخ الثورى المتمرد ولد « خليل مطران » سنة ١٨٧٢ ، وتفتحت

(١) لمزيد من التفصيل . . انظر : عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث ، الجزء الأول والمراجع المثبتة به ص ٦٥ وما بعدها ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، سنة ١٩٩٤ .

شاعريته ، وخلال دراسته فى زحلة ثم فى الكلية البطريركية فى بيروت كان نقاشه مع رفاقه يدور حول مظاهر التعبير عن الحرية المنشودة، وهم عندما يدرسون الأدب الفرنسى يعجبون بنشيد « المارسيليز » رمز الثورة الفرنسية ، وكما يحكى أحد أصدقائه فيما يحدثه عنه «مطران» [1] ، أنه كان كثيرًا ما يذهب مع رفاقه إلى أعالى الأشرفية فى بيروت وينشدون نشيد « المارسيليز »، وقد كان رمز الحرية ، وعنوان النضال ، وطريقة من طرائق تحدى الاستعمار فى تلك الأيام السوداء .

لكن النواح بالصوت المستعار لا يشفى الصدور كثيرًا ، وما دامت بواكير الشاعرية تتحرك فى الصدر ، وقد كتب الشاعر منها «الرائية الكبرى» لوالده، فليحاول كتابة قصيدة وطنية ، وإنْ كانت المخاطرة فى هذه الحالة شديدة، والثمن قد يكون العمر ذاته ، ولنستمع إلى «مطران» يحكى بنفسه هذه التجربة الدقيقة ، يقول «مطران»[2] :

« لما بلغتُ الثامنة عشرة من سِنِّى ، صرتُ معلمًا وطالبًا فى آن واحد بالكلية البطريركية ، فكنت أُعَلِّمُ العربية والفرنسية ، وأتعلم الإنجليزية والتركية ، وكانت لبنان وقتئذٍ ولاية عثمانية ، وكان الحكم العثمانى استبداديًا طاغيًا ، فسخط الناس على هذا الحكم ، وتبرموا لما هم فيه من سوء الحال ، ولم يكن سخطهم يرتفع من الهمس إلى الجهر لشدة العقوبات ، فأثار ذلك مشاعرى ، فنظمتُ قصيدة حماسية أستنهضُ بها قومى ليخلعوا عن كواهلهم وأعناقهم نير الظلم والاستعباد ، ولم يبق من هذه القصيدة فى ذهنى إلاَّ هذان البيتان :

(١) رواية لعمر فاخورى ، انظر : د. جمال الدين الرمادى ، مرجع سابق ، ص ١٨ .
(٢) طاهر الطناحى ، مرجع سابق ، ص ٩٩ .

بَنِى العُرْبِ فيمَ الصبرُ والحالُ ما نَرَى   ويَـأْبَى علينـا الخسفَ تاريخُنا قدمًا
وحتَّـامَ نطوى العمـرَ والليلُ دامـسٌ   ونحتمل الإجْحَافَ والضيمَ والظُّلْمَا

ولم أنشر هذه القصيدة، وكفى الناس أن تناقلوها عن إخوانى وزملائى حتى بلغت والى بيروت التركى «على باشا»، فنقم علىَّ ، وعزم على معاقبتى . . وكان أصلُ القصيدة مكتوبًا بخطىِّ عند صديق لى ، فأسرعتُ إليه وأخذتها منه وأحرقتها فى داره مع ما أجرقت من شعرى الوطنى، وبعد يومين فُوجئت بحضور الوالى نفسه إلى الكلية ومعه مأمور الضبط ، واقتحما علىَّ حجرة الدراسة، وسألنى الوالى عن القصيدة فأنكرتُها، فأخذ يهددنى وينذرنى بإرسالى إلى سجن عكا ، وكان هذا السجن كالباستيل فى هذا الزمان ».

ولم يقف الأمر عند الوعيد والتهديد للشاعر الفتى الثائر، وإنما تعداه إلى المطاردة والمضايقة، فقد تعرض «مطران» عدة مرات للقبض عليه ثم إخلاء سبيله بثًّا للرعب فى قلبه، وإزاحة للطمأنينة التى يمكن من خلالها أن يفكر فى الإبداع والتحريض، خاصة بعد أن تأكد للسطات التركية ما لشعر هذا الفتى - على قِلَّته وصغر قائله - من أثَرٍ فى النفوس، وذيوع على الشفاه، «وقد بلغ الأمر بالسلطات التركية أن دبرت مؤامرة لقتله، وقد عاد «مطران» إلى غرفته فى إحدى ليالى صيف سنة ١٨٩٠ فى أخريات الليل ، وراعه أن وَجَدَ سرير نومه مثقوبًا بالرصاص ، فقد ظن جواسيس السلطان عبد الحميد أن «الخليل» نائم فى مضجعه فأرادوا أن يتخلصوا منه برصاصة تقضى عليه فى الحال »(١).

وكان لهذه الحادثة أثرها على «مطران»، فقد قرر أن يسافر إلى باريس

(١) انظر : نجيب جمال الدين . . خليل مطران شاعر العصر ، ص ٤٦ ، القاهرة، سنة ١٩٤٩ .

بعيدًا عن مطاردة الأتراك، ومَرَّ خلال رحلته إليها بمصر والتقى هنالك بأسلافه من المهاجرين اللبنانيين الذين أصدروا صحفًا ناجحة، مثل: صحيفة الأهرام، ومجلة الهلال ، والذين سوف يقدر لـ «مطران» أن ينضم إليهم فيما بعد ليكون من رواد الصحافة الأدبية فى الربع الأول من القرن العشرين. ويواصل «مطران» رحلته إلى باريس لكى يتلقى مزيدًا من المعرفة، ويتعرف على القرب على الأدب والمسرح الفرنسى مما سيشكل نبعًا ثَريًّا لترجماته فيما بعد، لكنَّ الأتراكِ سوف يستمرون فى مطاردته هناك، مما جعله يفكر فى الهجرة مرة أخرى إلى «شيلى» فى المهجر الأمريكى، وفى سبيل ذلك بدأ يتعلم اللغة الإسبانية، ولكنه سرعان ما أدرك أن الأمان الحقيقى والفرصة المناسبة للتعبير عن مشاعره وطموحاته لن تكون إلاَّ فى مصر، فهاجر إليها سنة ١٨٩٢ وهو فى العشرين من عمره، واستقر بها بقية عمره حتى وافته المنية سنة ١٩٤٩ .

ومع أن استقرار الفتى الثائر فى مصر، وإحساسه بالأمان، وعثوره على المناخ الملائم للعمل والتعبير قد طمأن من نفسه الثائرة ، إلاَّ أن روح الثورة على الاستبداد والظلم ظلت كامنة فى شعره ، تظهر كلما وجدت الفرصة المناسبة، سواء من خلال الطريق غير المباشر، كما كان الشأن فى قصائده التاريخية التى تتحدث عن عصور الاستبداد ، مثل: عصر «نيرون»، وتلوم الشعوب التى ترضى بظلم المستبد، لأنها هى التى تصنعه من خلال ذلك :

ذلك الشعب الذى آتاه نصرًا ... هو بالسُّبَّةِ من نيرون أَحْرَى
كُل قَوْمٍ خالقُوا نَيْرُونَهُمْ ... قَيْصَرًا سَمُّوهُ أَمْ سَمُّوهُ كِسْرَى

أو من خلال نَفْثَة الغضب المباشرة، كما كان الشأن فى بعض مقطوعاته التى يوجهها ضد القوانين المتعسفة، مثل: قانون الرقابة على المطبوعات،

الذى حاول أن يقيد من أقلام الصحفيين الثائرين، ومن بينهم «مطران»، فكتب يقول تعليقًا عليه :

شـرِّدُوا أخيـارَهـا بـحـرًا وبَـرًّا ... واقتـلـوا أَحْـرارَهَـا حُـرًّا فَـحُـرًّا
إنـمـا الصـالـح يـبـقـى صالحـًا ... آخـرَ الـدهـر ويـبـقـى الشـرُّ شَـرًّا
كسّـروا الأقـلام، هــل تكسـيرهـا ... يمنـع الأيـدىَ أَنْ تـنـقش صَـخْـرًا ؟
قـطـعـوا الأيـدِىَ ، هـل تقطـيعهـا ... يمنـع الأَعْـيُـنَ أَنْ تـنـظُـرَ شَـزْرًا ؟
أَطْـفِـئُـوا الأَعْـيُنَ، هــل إطفـاؤها ... يمنـع الأنفـاس أن تصعـد زَفْـرًا ؟
أَخْمِدُوا الأَنْـفَـاسَ ، هـذا جهـدكـم ... وبـه منـجاؤنـا منـكم . . فشـكـرًا

ولقد نَاصَـرَ «مطران» بشعره كثيرًا من الشعوب الطامحة إلى الاستقلال، وخاصة أولئك الثائرين ضد العثمانيين، فَسَجَّلَ كفاحَ شعب «الجبل الأسود» فى صورة فتاة مناضلة تنكرت فى ثياب جندى وخاضت الحرب ببسالة . . كما كَتَبَ شعرًا عن كفاح « أُمَّة البوير » ضد المستغلين، قال فيه :

وإنَّ قـومًـا جـاءوا لـيُـفْـنُـوا ... أُمـتـهـا بُـغـيـة النـضـارِ
لا يـرحـمـون الصغـارَ مـنـهـم ... ولا يـرقُّـون لـلـكـبـارِ
ولا يـراعـون حـق حُـرٍّ ... ولا يَـصُـونُـونَ عَـهْـدَ جـارِ

* * *

من الصعب أن يُدَوَّن تاريَخ الصحافة فى مصر والعالم العربى فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر، والعقد الأول من القرن العشرين دون الإشارة إلى الجهود المتميزة لـ «خليل مطران»، سواء كان ذلك فى الصحافة الأدبية أو الصحافة العامة .

ومع أن كثيرًا من الأدباء اللبنانيين المهاجرين إلى مصر قد سلكوا طريق الصحافة ولم يكن «خليل مطران» بدعًا من ذلك ، إلا أن قصة عمله بالصحافة ، التى كان لها تأثير كبير على تاريخ الصحافة الأدبية، وتاريخ النثر الأدبى، فضلاً عن تاريخ «مطران» نفسه ، كادت تحكمها المصادفة والقدرية فى مراحلها الأولى ، ولعل هذه المصادفة أو القدرية تعود إلى يوم مولده ، فقد تصادف ـ كما يحكى شقيقه ألبير مطران [1] ـ أن نزل ضيف على أسرتهم يقال له «سليم تقلا» ـ وكان وقتها تاجر صابون ـ فعرف أن الأسرة رُزقت بمولود ، فرغب فى تهنئة والده ، وطلب أن يرى المولود ، ولما رآه تفرَّس فى وجهه وتنبأ له بمستقبل باهر ، ونظم له بيتين من الشعر ، ظلت الأسرة تحتفظ بهما فى أوراقها الخاصة .

(١) فى رسالة إلى د. جمال الدين الرمادى ، ص ١٤، مرجع سابق .

وبعد ثمانية عشر عامًا من هذا التاريخ، كان تاجر الصابون المتجول «سليم تقلا» قد استقر فى الإسكندرية وأسس بها مع شقيقه «بشارة تقلا» جريدة الأهرام بعد أن كان قد مارس التدريس فى بيروت، حيث تتلمذ على يديه فى الكلية البطريركية، فلما أراد «خليل مطران» أن يهربَ من بيروت إلى باريس عبر الإسكندرية، أوصاه والده أن يلتقى بصديقه القديم «سليم تقلا»، ويقول «مطران»: « خرجت من بيروت سرًّا فى صيف ١٨٩٠ قاصدًا باريس لأعيش فيها ، فلما وصلت الباخرة إلى الإسكندرية ، بارحتُها لمقابلة الأستاذ «سليم تقلا» أحد «صاحبىّ الأهرام»، وكان صديقًا لوالدى ، وقد أسس جريدة الأهرام بالإسكندرية هو وشقيقه «بشارة تقلا» قبل أن ينقلاها إلى القاهرة، فقابلته، وسألنى عن وجهتى ، فأخبرته أنى أقصد باريس ، فقابلنى - رحمه الله - ببعض الكُبَراء وعِلْيَة القوم، وعرفنى إليهم. وقضيتُ فى الإسكندرية بضعة أيام سافرت بعدها إلى باريس »[1] .

ولا شَكَّ أن هذا اللقاءَ العابرَ قد أكَّد فى نفس «سليم تقلا » أن ما تَنَبأ به لهذا الفتى يوم مولده ، هو فى طريقه إلى التحقق والظهور، ولاشك أن الفَتَى أيضًا كانت قد رويت له هذه النبوءة وهو يأمل فى أن يتحقق بعض منها عبر طُرق غائمة، قد يكون بعضٌ منها مجسدًا فى طريق تاجر الصابون ، الشاعر والأستاذ الذى أصبح صحفيًّا مرموقًا فى مصر .

لكن المصادفة سوف تلعب مرة أخرى دورها ، عندما يقرر «مطران» العودة من باريس وصرف النظر عن الهجرة إلى «شيلى» ، والاتجاه إلى مصر لكى يستقر هناك، فسوف يصادف هذا اليوم بالذات يوم وفاة «سليم تقلا»، وهو فى ريعان شبابه فى الثالثة والأربعين بعد أن أسس «الأهرام»

(١) مذكرات خليل مطران ، دار الهلال .

وهو فى السادسة والعشرين . واقترب موعد جنازته ، وستكون مشاركة «مطران» فيها خطوة حاسمة فى اشتغاله بالصحافة، يقول «مطران» عن هذا اليوم فى مذاكراته : « كانت الصلاة على جثمان الفقيد قد أزفت ، وكنت جالسًا على قهوة أنظم فيها رثاءه، ولما انتهيت ذهبت إلى الكنيسة، فوجدتُ بها جمعًا محتشدًا من كبار القوم وممثلى الدول الأجنبية، فانتظرت حتى انتهت الصلاة، وكنتُ أظُن أنه فى تلك الساعة سَيَتبارَى الخطباءُ والشعراء فى ذكر مناقب الفقيد الجليل، ولكنى انتظرتُ فلم أجد أحدًا ينهض إلى المنبر ليودع الراحل، فأخذتنى حمية الشباب وأسرعت إلى المنبر. . وبصرنى الحاضرون فوجدونى شابًا ضئيلاً، فولوا وجوههم شطر باب الكنيسة للخروج، فلم أعبأ، وَصِحْتُ قائلاً : أين خطباؤكم ؟ أين شعراؤكم ؟ أين أُدباؤكم ؟ أَيُدْفَنُ هذا الرجل الذى خدم العلم والأدب والصحافة دون أن يودعه خطيب أو شاعر بكلمة؟ . . فرأيت المولِّين وجوهَهم قد عادوا يستمعون لما أقول، فانتهزتُ هذه الفرصة وأخرجت قصيدتى وألقيتُها عليهم، فكان لها وقع حَسَن ».

ولم يَمْضِ يومان على هذا الموقف حتى دعاه «بشارة تقلا» وعرض عليه العمل معه فى صحيفة الأهرام، فاعتذر «مطران» لكيلا يتم الربط بين قصيدة الرثاء وقبول العمل، ولكن « بشارة » ألح عليه، وبَيَّنَ له أن الأهرام فى حاجة إلى صحفى شاب مثله يمكنه الاتصال بالشخصيات المهمة، بدلاً من فطاحل الكُتَّاب الذين «لا يستطيعون إلاَّ أَنْ يكتبوا بين جدران أربعة » .

على أية حال، فقد التحق «خليل مطران» بجريدة الأهرام منذ سنة ١٨٩٢ فترة صدورها بالإسكندرية ، وأصبح صحفيًا بارزًا فيها، وعندما سافر الخديو عباس فى زيارة للآستانة سنة ١٨٩٣ سافر معه ليغطى رحلته

للأهرام، وظل طوال ثمانى سنوات يعمل بالصحافة العامة، بين الأهرام والمؤيد، وأُسند إليه فى بعض مراحلها مهامّ رئيس تحرير الأهرام فى أثناء صدورها من الإسكندرية . . ولكنه فى سنة ١٩٠٠ قرر أن يتحول من ممارسة الصحافة «بالصدفة» إلى اختيار نمط معين من الصحافة، رأى أنه هو الأكثر ملاءمة لقُدراته وميوله، ويتمثل ذلك فى «الصحافة الأدبية» ، واقترن ذلك عنده بالرغبة فى «الاستقلال» الصحفى ، فرأى أن يؤسس لنفسه مجلة مستقلة، ثم مطبعة مستقلة فى مرحلة تالية، فأنشأ «المجلة المصرية»، ثم تلاها بصحيفة «الجوائب المصرية».

وقد صدرت «المجلة المصرية» لمدة ثلاث سنوات (١٩٠٠ ـ ١٩٠٢)، وكانت تصدر نصف شهرية، وقد مثلت نموذجًا راقيًا لأول مجلة أدبية فى القرن العشرين، وجذبت إليها أقلام كبار كُتَّاب العصر وشعرائه، وعلى رأسهم «محمود سامى البارودى»، الذى كان قد عاد من منفاه، وتوثقت الصلةُ بينه وبين «مطران» وإلى جانبه كان هناك «أحمد شوقى» و «حافظ إبراهيم» اللذان سيشكلان مع «مطران» ثالوثًا شعريًّا يرتبط فى تاريخ الأدب بنهضة الشعر العربى فى الربع الأول من القرن العشرين.

وكانت هنالك كتابات الأدباء بدءًا من «حفنى ناصف»، و «سليمان البستانى»، و « نقولا رزق الله »، ووصولا إلى الأدباء الشباب فى ذلك الوقت، ومن بينهم «على الجارم» الذى كتب مُطالبًا بالتجديد فى الشعر، والخروج من تصورات الأعراب فى البوادى، ولم تقتصر المجلة على الشعر، بل كان فيها أبوابٌ ثابتة للتاريخ ، والعلميات ، وعروض الكتب ، والرجال، والوقائع، والاقتصاد، والقصص، والروايات، وأخبار القضاء،

وشئون الزراعة ، فشكلت مجلةً جامعةً ، كانت تصل صفحات العدد الواحد منها إلى نحو مائة صفحة .

وبعد تجربة المجلة الأدبية نصف الشهرية طمع «مطران» أن يطور تجربته الصحفية ليصدر «صحيفة يومية» ، واختار لها اسم «الجوائب المصرية» ، والجوائب كلمة فصيحة بمعنى الأخبار الطارئة الشائعة . وقد صدر العدد الأول منها فى ٦ فبراير سنة ١٩٠٣ ، وحاول أنْ يجعلها جريدةً مستقلةً غَيْرَ حِزبية ، وأن يشترِكَ فى تحريرها أكبرُ عددٍ مِنْ كُتَّاب العصر، فكان يكتب فيها أدباءُ وصحفيون من أمثال : «أنطون الجميل»، و «توفيق حبيب»، و «أحمد محرم»، و «يوسف الخازن » و «على الغاياتى»، وحرص على أن تكون للجريدة مطبعةٌ مستقلةٌ انتقلت إليها ابتداءً من يوليو سنة ١٩٠٣ .

ثم نَوَّعَ المادة الصحفية بين أدبية وفنية، وسياسية واقتصادية، واعتمد على الإعلانات لتسدَّ جزءًا من التمويل المطلوب، وكانت الإعلانات فى شكل مقالات مدفوعة الأجر، ولم يكن «مطران» يتردد فى كتابة مقال عن مضخة مياه تسمى «ممص عزت» للمساعدة فى التكاليف المرتفعة للطبع، والتى لا تفى بها الاشتراكات الفردية التى كان يعانى كثيرًا فى تحصيلها من أصحابها، والتى كانت تمثل الطريقة الرئيسية لبيع الصحف آنذاك .

ونَشَرَ «مطران» كثيرًا من الترجمات التى قام بها لروائع الأدب الغربى من خلال جريدته ، إلى جانب قصائده وقصائد كِبار شعراء عصره ، من أمثال : شوقى ، وحافظ ، وإسماعيل صبرى .

وقد أشاد بتجربة «مطران» الصحفية كبارُ أدباء العصر، ومن بينهم الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد، الذى حيّا «مطران» وتجربته الصحفية بقصيدة أُلقيت فى حفل تكريم «مطران» سنة ١٩٤٧ ، وفيها يقول :

ذمم اليراعِ قضيتَها فى كلِّ ميدانٍ دعاكْ
ليس النظيمُ أو النثيرُ قصارَ ما استرعى هواكْ
إنَّ «الجوائبَ» و «المجلة» فى الصحافةِ شاهِدَاكْ

* * *

لما سبقت إلى الجديدِ ورُمْتَ منه إلى كمالْ
أتعبتَ خلْفَكَ مَنْ عَدا فى العَدْوتَيْنِ على ضَلالْ
لم يُدركوكَ وإن جَرَوْا من بَعْدِ شَوْطِكَ فى مجالْ

غير أنَّ «مطران» فى سنة ١٩٠٤ أدركَ مدى الصعوبات التى يتحملها فى سبيل المحافظة على إصدار صحيفته، وخاصةً ما لاحظه من تبرُّم بَعْضِ المشتركين فى الصحيفة من دَفْعِ مُسْتَحَقَّاتِهِم عندما يمُّر بهم مُحَصِّلُ الصحيفة، وكأنه يستجدى منهم العَوْنَ لا ثَمَنَ صحيفة قَرَءُوها، وكانَتْ تصل «مطران» بعضُ عبارات التبرم من قراء كان يظنهم أصدقاء مخلصين، فقرر «مطران» التوقف عن الاستمرار فى الصحافة، ولم يُخْفِ إحباطه من النفاق والخداع، وكان يردد دائمًا :

خُدعت بمن عايشتُ أيامَ موردى لهم موردٌ والمحفلُ الضخم مَحْفلى
فلما انقضى ما كان للناس مأملا إذا يَمَّمُونى خاب فى الناس مأملى

وهكذا أُسْدِلَ الستار على واحدة من التجارب الصحفية الجديرة بالاهتمام فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر، والعقد الأول من القرن العشرين.

* * *

من القصة الشعرية إلى المسرحية المترجمة

كان «مطران» واحدًا من أبرز رُوَّاد التجديد فى الأدب العربى فى بدايات القرن العشرين، ولم يقتصر مجال التجديد عنده على الشعر الذى استحقّ فيه لقب « شاعر القطرين »، وكان ثالث الثلاثة الذين يتصدرون أسماء الشعراء: شوقى، وحافظ ، ومطران، وإنما امتد أيضًا إلى مجالات نثرية أشرنا إلى بعضها كالصحافة، وسنشير لاحقًا إلى بعضها الآخر كالمسرح .

لكن واحدة من نقاط التجديد التى تجسدت عنده فى آن واحد فى كل من الشعر والنثر، كانت تتمثل فى هذه النزعة الواضحة للخروج من إطار الاقتصار على الغنائية التعبيرية، باعتبارها السبيل الأوحد للتعبير الشعرى، إلى تحقيق لون من الوحدة والترابط فى جسد النص الأدبى، وهو ترابط كان يحمل حينًا اسم «الوحدة العضوية»، وحينًا آخر شكل «النزعة القصصية»، أو «القصة الشعرية»، ثم تحقق فى شكل المسرحية العالمية المترابطة التى قدمها «مطران» فى شكل ترجمة راقية، ساعدت على وجود النهضة المسرحية الحقيقية فى الأدب العربى الحديث .

وقد ظهرت بوادر هذا التجديد فى قصائد «خليل مطران» المبكرة، ومنها قصيدة كتبها وهو فى السادسة عشرة من عمره، عن الحرب الألمانية الفرنسية

المعروفة بحرب السبعين، والتى بدأت بانتصار «نابليون» على الألمان ودخوله برلين سنة ١٨٠٦، ثم انتصار الألمان على «نابليون الثالث» ودخولهم باريس سنة ١٨٧٠. وتأخذ القصيدة شكلاً قصصيًا يصف تحرك الجيوش وانتصاراتها و إخفاقها، وهو يرسم فى مطلعها لوحة للجيش المتحرك :

مَشَتِ الجبالُ بهم وسالَ الوادى ... ومضوا مهادًا سِرْنَ فَوْقَ مِهادِ
يُحْدِى بهم مُتطوعين كأنهم ... عِيسٌ ولكّن الفناءَ الحادِى

وتتوالى الأبيات راسمةً بعض صور المعارك :

تُلقى الرجال على الثرى قَتْلى كما ... يُلْقِى السنابلَ منجلُ الحصَّادِ
وإذا جَوادٌ خَرَّ فارسُه، دعا ... بصهيله ذا حاجةٍ لجوادِ

حتى تصل القصيدة إلى نهايتها :

واستفتحوا باريسَ فاستوفوا بها ... أوْطارَهم وشَفَوْا صَدَى الأكبادِ
كُلٌّ بمسعاه يفوزُ ومن يُنِبْ ... عنه الحوادثَ لم يَفُزْ بِمُرَادِ

وقد كان «مطرانُ» واعيًا بهذه النزعة التجديدية مُعْتزًّا بها، وعندما أصدر ديوانه سنة ١٩٠٨، أشار فى مقدمته إلى أولئك الذين يتهمون شعره بأنه عصرى؛ من المتعنتين الجامدين، وخَاطَبَهُمْ قائلاً : «نَعَمْ هذا شعرٌ عصريٌّ، وفخره أَنَّهُ عَصْرِىّ. . . هذا شِعرٌ ليس ناظمُه بعبده، ولا تحمله ضروراتُ الوزن والقافية على غير قصده، يُقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الفصيح، ولا ينظر قائلهُ إلى جمال البيت المفرد، ولو أنكر جَارَهُ وشَاتَمَ أَخَاهُ، ودابرَ المطلعَ، وقاطَعَ المقطعَ، وخالفَ الختام، بَلَ يَنْظُر إلى جمال البيت فى ذاتِه وفى موضِعِه، وإلى جملة القصيدة فى تركيبها وفى ترتيبها، وفى تناسق معانيها وتوافقها، مع ندور التصور وغرابة الموضوع، ومطابقة كل

ذلك للحقيقة، وشغوفه عن الشُّعورِ الحر، وتحرِّى دقة الوصفِ واستيفائه منه على قدر».

وقد كان جزءًا من وسائل تحقيق «مطران» لهذا التصور يكمن فى اللجوء إلى القصيدة ذات الموضوع القصصى أو الدرامى، وقد أشار الدكتور محمد مندور إلى ذلك وهو بصدد حديثه عن تجديد «مطران»، حيث يقول [1] : «وفى رأينا أن «خليل مطران» يعتبر شاعرًا معاصرًا، استطاعَ فقط أن يوفر للقصيدة العربية الحديثة وحدتها العضوية ، وهى وحدة لا أظنها تتوافر فى يُسْر للقصائد الغنائية الخالصة التى تبنى من خواطر وأحاسيس متناثرة، وليس من الضرورى أن تخضع لنسق تسلسل محدد حتمى، بحيث لا يمكن تقديم بيت فيها عن موضعه أو تأخير بيت، وإنما يمكن أن تتوافر ويجب أن تتوافر فى القصيدة ذات الموضوع القصصى أو الدرامى» .

والواقع أن ديوان «مطران» ضم مجموعةً طيبةً من هذه القصائد ، يعبر كثيرٌ منها عن تجارب إنسانية واقعية أو متخيلة تهدف إلى تجسيد قيمة نبيلة من القيم الإنسانية، خاصة فى مجالى الحرية والحب.. ومن بين هذه القصائد ، قصيدة «فتاة الجبل الأسود» وهى ترسم صورة الفتاة التى قررت أن تشترك فى الحرب فى سبيل حرية شعبها ، فتنكرت فى زى فتى وخاضت معركة قاسية متفردة مع أعدائها من الأتراك :

فتـى كالصبـاح بـإشـراقـه ... لـه لفتـة الـرشـأِ الأغيـدِ

لهيـبُ الحـروب علـى وجَـنْـتَـيْهِ ... والنقـعُ فـى شَـعْـره الأسـودِ

وفى محجـريـه بـريـقُ السيـوف ... وظـلُّ المنِيَّـةِ فـى الإِثْـمِـدِ

(١) د. مندور. نظرة فى شعر مطران ، مهرجان خليل مطران، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، القاهرة ، سنة ١٩٥٩ .

فـأفــرغ نَـــــار سُـداسيــةٍ   على القَـومْ أيَّـــا تُصِـــبْ تَقْصــدِ
وضــاربَ بالسيــف يُمْنـى ويُسرى   فـأيْـنَ يُصــب مَـغْمـدًا يُـغْـمَـدِ
سَقَى الصخـرَ مـن دمِهـم فارتــوى   ولـــم يُشْفَ منـهُ الفـؤادُ الصَّــدِى

وهنالك أيضًا قصة الطفلة البويرية التى تتحدث عن مأساة أُمتها فى حربها مع الإنجليز ، من خلال وصفها لمشاعر الحزن عندها على أبيها الذى انتزعت من حضنه لكى يذهب للحرب :

تنبــهــتْ بــاكــرًا وكـانَــتْ   مــن قبْــلُ لــم تَــألفِ ابتكـارْ
مَّـــر بهــا الـهــمُّ وهــو عـــادٍ   ينَتْـهــبُ البـــرَّ والبـحـــارْ
كـطـائـــرٍ راقَـــه غــديـــرٌ   فـرفَّـــه جـانـحًـــا وطـــارْ
واستـمــعــتْ للغـــداة قيـــلا   إنَّ أبـــاهـــا للحـــرب ســارْ
وإن قــومًـــا جـــاءوا ليُفـنـــوا   أُمَّـتَـهَـا بُغْـيـــةَ النُّـضَـــارْ
وإنَّ كـــلَّ البــويـــر خفـــوا   ليـدفعــوهــم عـــن الذمـــارْ
كـذاك هُـمْ كلـهـم جـنـــودٌ   لصـــدِّ عـــادٍ أو أَخْـذِ ثـارْ
كبيـرهُــمْ قـائـــدُ بَـنـيــه   إلـــى ردًى أو إلـى انتصـارْ
وطـفـلُـهـم ضـــارعٌ إلى مَـــنْ   إذَا بـــرىءٌ دَعـــا أَجـــارْ

وهنـالـك قصـائـد تـاريخيـة عـن شخصيات مستبدة ، مثل : «كسرى» و «نيرون»، يجسد «مطران» تجاربها مع شعوبها، لكنه ينتهى عادة بتوجيه اللوم إلى هذه الشعوب التى كان خنوعها هو العامل الأول فى إعطاء الفرصة لهؤلاء المستبدين لكى يصيروا طغاة جبّارين :

مــا كــان كسرى إذ طغى فى قومـه   إلاَّ لـمـا خُلقـوا بـه فـعَّـالا
هم حكّمـوه، فاستـبـد تحكـمـا   وهُـمُ أرادوا أن يصـول فصـالا

وهو يردد نفس المعنى عند حديثِهِ عن «نيرون» طاغية روما :

ذلك الشعـبُ الـذى آتـاه نصـرًا   هـو بـالسُّبـةِ مـن «نيرون» أحْـرَى
إنــا يـبـطـشُ ذو الأمـرِ إذا   لَـمْ يَخَفْ بطـشَ الأُولَى وَلَّـوْه أمْـرًا

ولا تقف قصائد «مطران» القصصية عند تجارب الحرية السياسية، وإنما تمتد إلى تجارب إنسانية وعاطفية أُخرَى، فى مثل قصيدة: «فنجان قهوة»، و«الجنين الشهيد»، و «شهيد الغرام المجهول»، وهى القصيدة التى يروى حكايتها فى الجزء الأول من ديوانه، وقد أعطاها عنوان : «فى تشييع جنازة»، يقول: « خرجت صباحًا من منزلى بالقاهرة، وإذا نعشٌ مكسوٌّ بالبياض، محلًّى بالزهر، يتبعه رهط من الفتيان الإفرنج، فسألت أحدهم عن ذلك الفقيد فأجابنى بأنه شاب انتحر غرامًا، فخرجوا يشيعونه، فشيعته معهم على غير معرفة به، وطفقتُ أرثيه بهذه الأبيات :

قَـرَّبْـتُـهُ فـمـا ارْتَـوَى   وجَـفَـتْـهُ فـمـا ارْعَـوَى
غـادة مـن سَـعَـى إلـى   غـايـة عـنـدهـا غَـوَى
جُـنَّ فيهـا وقبلـه   جُـنَّ قيـسٌ مـن الهَـوَى
وقضـى خـالـدَ الـنـوى   يـتـدواى مـن الـنَّـوَى
فَـدَفَـنَّـاهُ، بَـرَّدَ الغَـيْـثُ قبـرًا بـه ثَـوَى
مـن قَـضَـى هكـذا شهيـدًا فَـمِـنْ أَهْلنـا هُـوَا»

أمَّا قصيدة « الجنين الشهيد»، فقد كانت واحدة من القصائد القصصية

الطويلة التى جاوزت أربعمائةِ بيتٍ ، وكُتبتْ على شكلِ «خُماسيات» تتكون كلُّ خماسية منها من خمسة أشطر ، تتحد أربعة منها فى قافية تتغير من خماسية إلى أخرى ، ويبقى الشطر الخامس محافظًا على قافية واحدة فى القصيدة كلها . وتدور القصيدة على الموضوع الذى كان يستهوى أصحاب الاتجاه الرومانسى، الفتاة الفقيرة الجميلة التى يضطرها الفقر إلى التسول ، ثم إلى العمل فى «حانة»، وما تتعرض له ، وإغراء أحد الفتيان لها ، ووعدها بالزواج حتى ينال رغبته منها ثم يهرب ، وتجد نفسها ـ أمام مأزق الحَمْل والعار ـ مضطرة لأن تتخلّص من حملها ، وتقضى على « الجنين الشهيد » . وقد وجدت القصيدة قبولاً من نقاد عصرها ، فأطلق عليها البعض اسم «الإلياذة الحديثة »[1] .

وهناك قصائد قصصية لدى « مطران » تجمع بين الشهامة والحب ، كما هو الشأنُ فى قصيدة « شهيد المروءةِ وشهيدةُ الغرام » التى تتحدث عن فتى شهم يعلم أن قَرْيتَه يتهددها ذئبٌ مفترس يُقيم فى الجبال المحيطة بالقرية ، ويبعثُ الرعَب فى نفس أهلها ، فيجعلُ من همه تخليصَ القرية من شرور هذا الذئب ، ويُضطر يومًا إلى مواجهة الذئب ، والقرية تتابع المعركة بأنفاس متلاحقة ، وينتصر « الفتى » ـ واسمه « أديب » ـ على الذئب ، فيقتله ، ويعود حاملاً جثته ، ولكن بعد أن ينال الذئب منه ، فيجرحه ، وينتقل إليه داء الكلب دون أن يدرى ، وتسعد القرية بالانتصار ، وتُحدد ليلةً لزفاف البطل على حبيبته « لبيبة »، ولكنه فى ليلة الفرح تأتيه نوبة «الكلب»، ويحاول الجميع تهدئته ، فلا يستريح قليلا إلا عندما يرى حبيبته

(١) د. جمال الدين الرمادى ، ص ١٤٩ ، مرجع سابق .

التى تظل إلى جواره ، برغم تحذيرها ، وفى نوبة هياج تالية يهجم عليها حتى تموت بين يديه ، وعندما يدرك ما فعل يقع جثة هامدة :

فَـهَـشَّ مســرورًا بـهـــا   وبـشَّ حيـــن قربِـهـــا
كـالأســد الـمـــريـضِ   مُـلْقَـى علـى الحضيـضِ
عــادَتْــهُ بــالعــريـــنِ   إحـــدى الظبـــاءِ العيـنِ

* * *

ظــل قليـــلا يَـبْـسِـمُ   يُضْـغـي ولا يُـكَـلِّـمُ
ثُـم شَـكَـا ثُـمَّ زَفَـرْ   ثُـمَّ بكَـى ثُـمَّ نَـفَـرْ
وعَضَّهـا فـى صَدْرهـا   ورأسِـهـا ونـحـرِهـا
فـلـم تحـاول الهـربْ   مــن هــول ذلك الغَضبْ
وَعَــرَّضَــتْ حيـاتَهـا   مُـؤْثِـرةً ممـاتـهـا
فَظـلَّ فـى إيـلامهـا   وهــى علـى استسـلامهـا
حتـى تـولى عُـنْـقَـهـا   باليـد يبغـي حتفـهَـا
فـاستصرخَـتْ مــن الوجَـعْ   وبعدهــا الصـوتُ انقطـعْ

* * *

وفى هذا الإطار الاجتماعى أيضًا تأتى قصائدُ قصصيةٌ أخرى ، مثل: قصيدة « فاجعة فى هزل »، وهى تحكى قصَة مجموعةٍ من الفتيان كانوا على مقربة من مجموعة من الفتيات ، وأرادوا أن يبحثوا عن طريقة يستلفتون بها أنظارهن ، ويفتحون بابًا للحديث والمرح معهن ، فكان أن اقترح أحدهم أن يرقد مدعيًا الموت ، وأن يصرخ زملاؤه فزعين ، فتقبل الفتيات ، وتأخذ

الخطة مجراها ، وما إنْ بَدَءُوا وصرخوا ، وأقبلت الفتيات ، وحاول الفتيان إيقاظ صاحبهم من رقدته ، حتى وجدوه لا حراكَ به ، فظنوا أنه يُبالغ فى إتقان دوره لإفزاع الحِسَان ، ولكنهم اكتشفوا أنه مات بالفعل ، وانقلب الهَزْلُ إلى فاجعة :

وَحَفَلْنَ حول سريره يَنْهَرْنَهُ ... لكنْ أَخْطَنَ بصخرة صَمَّاءِ
فرفعن عنه غطاءَه فَوَجَدْنَهُ ... بِالْمَيْتِ أشبه منه بالأحياءِ
عَالَجْنَهُ جهدَ العلاج ولم يكن ... شىء ليوقظه من الإغماءِ
حتى إذا دُعِىَ الطبيبُ فجاءهم ... رَاعَ القلوب بِنَفْىِ كل رجاءِ
فتبدلتْ أرْوَاحُهُم فى لحظة ... بمناحة وسُرورهم ببكاءِ

وكثيرة هى القصائد القصصية فى ديوان «مطران» ، والتى تستمد مادتها من التاريخ أو من الواقع أو من الخيال، مثل : قصيدة « مقتل بزرجمهر »، و « المرآة الناظرة ـ أو عين الأم »، و « يوسف أفندى »، و « إن من البيان لسحرًا »، و « بنت شيخ القبيلة ». وينبغى أن نلاحظ أن هذا اللون من القصائد القصصية كتب قبل شيوع فن الرواية أو القصة القصيرة النثرية بمعناهما الفنى الحديث عند هيكل وتيمور والعقاد والمازنى وطه حسين وتوفيق الحكيم وغيرهم ، وكأن « مطران » كان يحاول أن يؤهل الشعر للقيام بإشباع هذه الحاجة القصصية لقارىء الأدب العربى .

ولاشك أن هذه النزعة القصصية فى قصائد « مطران » بهذا القدر من التركيز والتنوع والتعمد ، كانت تمثل منزعًا جديدًا فى القصيدة العربية فى بداية القرن العشرين ، ولا يقلل من هذا الانطباع وجود بعض نوازع التعبير

نحو « القصصية » فى القصيدة العربية القديمة عند شعراء، مثل : عمر بن أبى ربيعة ، والحطيئة ، وأبى نواس ، وابن الرومى ، وغيرهم .

* * *

إن هذه الميول نحو « الدراما » عند «مطران» تبدو واضحة فى الدور المهم الذى قام به «مطران» نحو المسرح « فن الدراما الأول »، وهو دور إن لم يتخذ شكل التأليف للمسرح ، فقد ساعد فى تطوير المسرح العربى بأكثر مما ساعده به كثير من المؤلفين فى عصر « مطران » وبعده ، وقد أدرك المعاصرون لـ «مطران» أهمية ما قام به فى تقدم المسرح العربى ، وكان من مظاهر ذلك أن الدولة عندما أنشأت أول فرقة قومية للمسرح فى مصر فى العصر الحديث سنة ١٩٣٥ ، لم تجد أكفأ من «خليل مطران» لكى تسند إليه أمر تأليف هذه الفرقة وإدارتها وتصريف أمورها .

وإذا كان هذا الاعتراف يمثل قمة ما وصلت إليه المكانة الوظيفية لـ «مطران» فى عالم المسرح ، فإن اهتماماته وجهوده ومكانته الفنية تظل فى تجدد مستمر، وتظل موضعَ تأمل الدارسين جيلاً بعد جيل ، ولا شكَّ أن بدايات اهتماماتِه تعود إلى فترة مبكرة متأثرة بمناخ الثقافة الفرنسية التى تربى عليها من ناحية ، وبالنشاط اللبنانى المبكر فى المجال المسرحى تمثيلاً وترجمة من ناحية أخرى . ولقد كان الشيخ « خليل اليازجى »، وهو أحد الأساتذة المباشرين لـ « مطران »، صاحب تجارب فى التأليف المسرحى ، فقد وضع رواية شعرية تمثيلية سماها « المروءة والوفاء » أدارها على ما أبداه حنظلة الطائى من مكارم الخلق فى عهد الجاهلية ، مما كان له أثره فى تحويل النعمان ابن المنذر عن الوثنية .

أمَّا أصدقاؤه وأبناء جيله فكانوا قد شرعوا بالفعل فى ممارسة الترجمة

المسرحية عن الفرنسية على نحو خاص ، مجاراة لتيار ساد فى أُخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وكانت الترجمات السريعة والمتصرفة تلبى حاجة الحفلات الفنية التى تقيمها المسارح فى المدن الكبرى فى مصر والشام ، وكانت من طبيعة هذه الترجمات أن تتصرف فى المآسى المترجمة ، فتعدل من قسوة الأحداث فيها ، وخاصة فى النهايات ، حتى لا تعكر مزاج الجمهور الذى كان يبحث عن صفاء البال قبل كل شىء ، وبالتالى كانت تضطر الفرق المسرحية إلى أن تختم الليلة الفنية بمونولوج صغير ، أو حكاية تمثيلية مضحكة ، من أجل أن تدخل السرور على قلوب الجماهير قبل الانصراف .

وقد كتب « خليل مطران » نفسه واحدًا من هذه المونولوجات فى شكل قصيدة مطولة ، عنوانها : « الطفلان »، وكتب فى مقدمتها فى الديوان : «مونولوج تمثيلى نُظم بطلب الشيخ سلامة حجازى ، وكان يغنيه منفردًا » . وتدور قصة المونولوج على طفلة وحيدة لأسرة ثرية كانوا يؤجرون لها طفلاً فقيرًا خفيف الدم لمؤانستها ، فنما الحب بينهما ، فلما كبرا وخطبها الفتى رفضه أهلها لأنه فقير ، فأصر على أن يضرب فى الأرض بحثًا عن الغنى حتى يجمع لها مهرها ، فلما عاد بالمال بعد سنين ، كان الأوان قد فات ، وقد زَوَّجوها بغيره ، فحزنت على فراقه وماتت ، وحزن على موتها فلحق بها .

غير أن « مطران » برغم هذه المشاركات ، وبرغم قربه من نجوم المسرح فى عصره ، وفى مقدمتهم « سلامة حجازى »، لم يسهم فى حركة الترجمة غير الدقيقة التى كانت سائدة بين الكتَّاب اللبنانيين فى ذلك العصر ، كما فعل صديقه « نجيب الحداد »، الذى كان يكبره بعدة سنوات ، وقد مَرَّ مثله بمراحل الدراسة فى لبنان فى الكلية البطريركية، والتتلمذ على يد أبناء اليازجى ، الذين كانوا فى واقع الأمر أخوالَه ، ثم الهجرة إلى مصر . وقد أَمَدَّ

« نجيب الحداد » المسرح المصرى بكثير من المسرحيات المترجمة [1]، من أمثال: « السيد » للشاعر الفرنسى كورنى ، و «البخيل »، و «الطبيب المغصوب» (طبيب رغم أنفه) لموليير، و «حمدان (هرنانى)» لفكتور هيجو، و «روميو وجولييت» لشكسبير ، التى أطلق عليها « شهداء الغرام ». وقد أنجز « نجيب حداد » هذه الترجمات وغيرها من ألوان الإبداع الأدبى شعرًا ونثرًا وصحافة ، برغم موته المبكر فى الثانية والثلاثين من عمره.

وبرغم هذه المغريات أمام « مطران » فإنه فَضَّلَ ألاَّ يشارك فى هذه «اللعبة» المتعجلة ، التى ترضى أمزجة الجماهير قبل أن ترضى قواعد الفن الدقيق ، وتحقق الشهرة العاجلة التى قد تذهب بنفس السرعة التى أَتَتْ بها بدلاً من أن تحقق الشهرة الدائمة التى تثبت على مر العصور ، وتعاقب الأيدى والأعين عليها .

وقد ظل «مطران» ينتظر اللحظة المناسبة لدخوله مجال الترجمة المسرحية وفقًا للتصور الذى يرتضيه ، وقد جاءت تلك اللحظة سنة ١٩١٠ ، مع عودة الممثل القدير « جورج أبيض » من بعثته فى إيطاليا واستيعابه لمفهوم المسرح الحديث التراجيدى الذى لا يقف عند مجرد الإمتاع الغنائى ، وسرعان ما التقى الرجلان واتفقا على أن يبدأ « مطران » بترجمة رائعة شكسبير «أوتللو»، التى كان «مطران» هو الذى سمى بطلها «عطيل»، وشاعت التسمية حتى اليوم ، ومع أن «مطران» غيّر اسم البطل كما فعل «نجيب الحداد» عندما غيّر اسم «هرنانى» بطل فكتور هيجو إلى «حمدان»، فهنالك فارق كبير بين منهج التغيير هنا وهناك، فعند «نجيب حداد» لا رابطة بين الاسم الأصلى والاسم المقترح، ولكن «مطران» يحاول أن يرد الاسم إلى أصله

(١) انظر : عبد الرحمن صدقى ، خليل مطران والمسرح ، مهرجان مطران ، سنة ١٩٥٩ .

العربى المحتمل، وقد أورد فى مقدمة ترجمته الأفكار التى راودته وهو يحوّل «أوتللو» إلى «عطيل»، وكانت فكرته قائمة على أن الشخصية عند شكسبير هى شخصية عبد مغربى، ومعنى ذلك أنها تحمل فى الأصل اسماً عربيًّا، نطقه شكسبير «أوتللو» وهو اسم غير موجود عند العرب، لكن «مطران» يرى أن أقرب شىء محتمل إليه هو «عطا الله» أو «عُطيل»، وهو يرجح الاحتمال الثانى اعتمادًا على العادة المتبعة عند العرب فى التسمية، والتى تقضى بأن يختار للعبيد الأسماء والصِّفات الجميلة لِيُنَادَوْا بها فى البيوت، ومن هذه الصفات كلمة «عاطل» التى تعنى الجميل المستغنى بجماله عن التزيُّن بالحلىّ، فهو «عاطل» عنها، وتُصَغَّر على «عطيل» التى هى قريبة النطق من «أوتللو» عند شكسبير.

وهذا التصرف فى العنوان يقدم نموذجًا لمفهوم الدقة فى الترجمة، ومحاولتها تقديم رسالة لمتلقى النص المترجم، موازية فى الدلالة والتأثير لتلك التى يتلقاها قارىء النص الأصلى، ويتحقق ذلك التأثير من خلال لغة أدبية رفيعة المستوى، ومعايشة دقيقة للنص، لا تزال تثبت عند المقارنة بين ترجمات «مطران»، والترجمات الأخرى الكثيرة التى سبقتها أو لحقت بها لنفس النصوص [1].

وقد امتدت ترجمات «مطران» لشكسبير، فترجم «مكبث» مع تصرفٍ قليل بترك بعض المشاهد، مما دفع بعض النقاد إلى القول بأن «مطران» كان يترجم شكسبير عن الترجمة الفرنسية، التى كانت لا تستسيغ بعض المشاهد العنيفة على المسرح، لكن «مطران» نفسه أشار فى بعض كتاباته إلى أنه كان

(١) انظر: بعض المقارنات التفصيلية التى أجراها عبد الرحمٰن صدقى فى دراسته السابقة.

يرجع إلى الأصل الإنجليزى والترجمة الفرنسية التى من الطبيعى أن يستأنس «مطران» بها باعتبارها اللغة الأقرب إلى ثقافته بعد العربية .

وفى سنة ١٩٢٠ قدم «مطران» ترجمة رائعة لمسرحية «هاملت»، وأشار أيضًا إلى أنه أحدث تغييرًا يسيرًا فى عدد الفصول والمشاهد، وفى سنة ١٩٢٣، قدم رائعة شكسبير «تاجر البندقية»، وكانت ترجماتها متداولة على المسارح فى مصر قبل هذا بحوالى أربعين عامًا ، منذ قدمها «سليمان القردامى» وفرقته على مسرح الإسكندرية باسم «الصراف المنتقم» سنة ١٨٨٥، لكن الفرق بين ترجمة «مطران» وهذه الترجمة وغيرها تُوَضِّحُ الفرق بين مفهوم الأدب المسرحى قبل «مطران» ومفهوم الأدب المسرحى لديه . وهنالك احتمال أن يكون «مطران» قد ترجم مسرحيات أخرى لشكسبير ولم تمثل أو تطبع، فقد قال فى خاتمة مقدمته لتاجر البندقية : «إن الغُرَرَ فى روايات شكسبير ثمانٍ ـ على ما أعتقد ـ عَرَّبْتُهُنَّ جميعًا ، وسأوالى تمثيلهن بالطبع، إذْ هن لكل لغة حاجة وزينة ، فما بالك باللغة العربية وهى مجتمع أبحر البيان ، وملتقى كل ذى أدب وإحسان ؟!» .

ولم تقتصر ترجمات «مطران» على المسرح الإنجليزى ، وإنما امتدت إلى الأدب الفرنسى ، إنْ لم تكن بدأت به، لأن الفرنسية كانت مجال اهتمامه الأول بين اللغات الأجنبية، وقد ترجم لعلم الكلاسيكية الشهير «كورنى» مسرحية «السيد» ومسرحية «سنا»، كما ترجم رائعة فكتور هيجو «هرنانى»، التى كانت أيضًا واحدة من المسرحيات المتداولة فى الترجمة، ولكن مع البون الشاسع بين المحاولات «التجارية» السابقة على «مطران» وترجماته الفنية المحكمة .

وكان «مطران» قد بدأ فى مرحلة مبكرة بترجمة بعض الأعمال القصصية والروائية، مثل : رواية «الانتقام» التى ترجمها عن الفرنسية سنة ١٨٩٤، دون

أن يذكر اسم مؤلفها، ثم رواية «الغريب» لبول بورجيه التى ترجمها بعد ذلك.

وهكذا كانت الميول الدرامية لـ «مطران» قد ساعدته على إنعاش الأدب العربى فى بواكير مرحلة النهضة والتجديد بهذا العطاء الراقى من الشعر القصصى، والرواية المترجمة ، وروائع المسرح العالمى، وهى جهود ساعدت بدون شك على توجيه مسيرة الأدب العربى، وعلى تخليد اسم «خليل مطران» .

***

لا يمثل شعر الحب بالنسبة للأدب العربى فنًّا جديدًا يمكن نسبته إلى العصر الحديث دون غيره، فهو من أقدم ما عرف هذا الشعر من فنون، حتى إنه تحول فى بعض مراحله إلى فن جمالى ينتمى إلى بنية القصيدة ذاتها أيًّا كان لون الموضوع المثار فيها، وتقلبت ألوان التعبير عن الحب بتقلب أحاسيس النفس والجسد، ومعاناة المعشوق والعاشق، والهيمنة على مسارب الرموز اللغوية، أو الوقوف عند حافتها، والولوج إلى الطبقات العميقة من التجربة أو الاكتفاء بسطحها الظاهرى، إلى غير ذلك من بواعث الشعور وألوان التعبير .

وقد كان « مطران » واحدًا من مئات الشعراء الذين استلهموا المرأة فى مسيرتهم الشعرية، فألهمتهم أعذب الكلمات وأخلد الصور ، غير أن تجربة «مطران» الغزلية لها جانب من خصوصيتها عندما تُوضع فى إطار مثيلاتها فى الشعر العربى الحديث.

ولابد من الإشارة أولاً إلى أن كل العوامل المحيطة بـ«مطران» كانت تؤهله لأن يكون شاعرًا غزليًّا رقيقًا، انطلاقًا من الجمال الذى أحاط به منذ مولده فى ربوع لبنان، وانتقاله من«بعلبك» إلى «زحلة» جارة الوادى، إلى «بيروت»،

ثم نزوحه إلى «باريس» فى سِنّ الشباب المبكر، وعودته إلى الإسكندرية والقاهرة، واختلاطه هنا وهناك بالجاليات العربية والأجنبية فى صالونات الأدب والموسيقى، وحفلات المسارح، وردهات الصحافة، ومنتديات الطبقة الراقية، وفى عصر المشاعر الرومانسية التى كان «مطران» واحدًا من روادها فى الشعر العربى، فإذا أضفنا إلى هذا كله أن «مطران» عاش عزبًا طوال حياته، لم تقيد حرية القول والفعل عنده صاحبةٌ ولا وَلَد، أدركنا معنى أن يحيط الجمال الأنثوى به طيلة حياته، بل كان ذلك موضع مُدَاعَبةٍ وغيرةٍ خفيفة من رفاقه بعد سِنِّ الشباب، ومنهم أمير الشعراء «أحمد شوقى»، وكان «شوقى» يحب مداعبة «مطران». . وكان «مطران» يعجب بالجمال، وله صديقات كثيرات من فضليات اللبنانيات والأجنبيات، وكان ربما صحبهنّ إلى «المشارب العامة والمنتديات»، فإذا رآه «شوقى» داعَبَهُ، مذكِّرًا إيَّاه بشيخوخته [1].

وتعود إشارات الديوان إلى بعض بقايا حكايات عواطف الصبا عنده، فأثناء إقامته بمدينة «زحلة» فى مرحلة الدراسة الثانوية، كانت مشاعره الأولى قد استيقظت على حب طُفولىٍّ لإحدى قريباته، وتدعى «نجلاء الصباغ»، من بنات أخواله، ثم فَرَّقَت الحياة بينهما سريعًا، فارتحل هو إلى «بيروت» ومنها إلى «فرنسا» ثم إلى «مصر»، ثم هاجرت هى إلى «نيويورك»، وأصبحت من السيدات المرموقات فى المجتمع اللبنانى بأمريكا، ثم قُدِّرَ لها أن تزور «مصر»، وقد أصبح «خليل مطران» كذلك شخصية مرموقة فى المجتمع المصرى، فأقيمت لها حفلة تكريمية شَارَكَ «مطران» فيها بقصيدة استثار فيها بعضًا من ذكريات الطفولة العذبة [2]:

---

(١) حياة شوقى : أحمد محفوظ ، ص ١٢٨ ، نقلاً عن : د. ميشال جحا : «خليل مطران، باكورة التجديد فى الشعر العربى الحديث» ، ص ٨٥ ، دار المسيرة ، بيروت ، سنة ١٩٨١ .

(٢) انظر: إيليا حاوى: خليل مطران، طليعة الشعراء المجددين ، جـ١ ص ٦ ، دار الكتاب اللبنانى، بيروت ، سنة ١٩٨١ .

هــل تذكريــنَ ونحــن طفــلانِ   عَـهْـدًا بـزحلــة ذكــره غُـنْـمُ
إذْ يـلتـقــى فــى الكَــرْمِ ظــلانِ   يتضاحكـــانِ ويــأُنــس الـكَــرْمُ

وتشير قصائد الديوان إلى علاقة إعجاب بمهاجرة لبنانية أخرى هى الأميرة «ألكسندرة» ابنة «نعوم الخورى»، وكانت قد تزوجت من إيطالى وأقامت فى «الإسكندرية»، وأصدرت فيها مجلة «أنيس الجليس»، وكان «مطران» يتردد على مجلسها، ينشر فى مجلتها بعض القصائد القصصية، ومنها : قصيدة «شهيد المروءة»، وقصيدة «فنجان قهوة»، وكتب فيها بعض قصائد، منها قصيدة مطلعها :

يا عيونًا تسقى العيون الرحيقَا   واصلى مُدْمِنًا أَبَى أَنْ يفيـقــا

وهناك إشارات حول رسائل من « مطران » إلى « مَىّ زيادة »، وكانت واحدة من ظواهر العصر الأدبية، بشبابها، ونزعتها الأدبية، وجرأتها، ومجلسها الذى يلتقى فيه الأدباء ، ولم تقتصر الرسائل المتبادلة معها على «مطران» وحده، بل إن كثيرًا من أدباء العصر وشعرائه كانت لهم رسائل معها، يقول «كامل الشناوى» : «إن ما يقرب من مائة من أهل الفكر كانوا يتغزلون فى «مَىّ»، ففى أوائل عام ١٩٤٢ بعد وفاة «مَىّ» ببضعة أشهر، عكف أقاربها على بحث أوراقها الخاصة، فوجدوا بينها مئات الرسائل تضم عشر رسائل من كُتَّاب أجانب. أما بقية الرسائل فهى من أئمة الأدب والفكر ممن عرفوا «مَىّ» واتصلت بهم اتصالاً أدبيًا مباشرًا، أو اتصالاً غير مباشر عن طريق تبادل الرأى فى الكتب الخاصة، أو على صفحات الجرائد والمجلات الأدبية فى مصر وسوريا والعراق ولبنان ، وتولى «أنطون الجميل» و «خليل مطران» فحص هذه الرسائل وتنسيقها وإعدادها للنشر، وحَبَّذَ الدكتور طه حسين نشرها فى وضعها الموجود بدون تغيير، غير أن لطفى

السيد عارض فى نشرها معارضة شديدة ، وقال : إن نشرها مؤامرة على سر امرأة»[1].

والواقع أن معظم أدباء وشعراء وعلماء العصر كانوا قد ترددوا على صالون «مَىّ» فى الفترة المتألقة التى عرفها ذلك الصالون ،على امتداد نحو ربع قرن بدأت من شهر أغسطس سنة ١٩١٤ حتى أصاب «مَىّ» ما أصابها بعد فقدان الأبوين ورحيل الأصدقاء، فآثرت الوحدة والعزلة حتى انطفأت واحدة من أجمل شموع الأدب فى النصف الأول للقرن العشرين .

ويحاول الأستاذ «وديع فلسطين» فى مقال له نشر مؤخرًا [2] أن يحصى أشهر المترددين الدائمين على صالون «مَىّ»، فيذكر منهم : هدى شعراوى رائدة تحرير المرأة، وباحثة البادية ملك حفنى ناصف، وإيمى خير وهى أديبة باللغة الفرنسية، ونظلة الحكيم زوجة عميد الفلسفة والأدب الدكتور محمد مظهر سعيد، والدكتورة إحسان القوصى . . أما الشعراء فمنهم: إسماعيل صبرى باشا، وأمير الشعراء أحمد شوقى، وخليل مطران، وشبلى الملاط، وحافظ إبراهيم، وولى الدين يكن، وجميل صدقى الزهاوى . . ومن العلماء : الدكتور شبلى شميل، والأمير مصطفى الشهابى، وإسماعيل مظهر، والدكتور يعقوب صروف، وأمين المعلوف صاحب المعجم الفلكى ومعجم الحيوان ، والدكتور أمير بقطر عميد كلية التربية بالجامعة الأمريكية . . ومن علماء الدين : الشيخ محمد رشيد رضا، والشيخ مصطفى عبدالرازق ـ شيخ الأزهر فيما بعد ـ والشيخ على عبد الرازق . . ومن الأدباء المعروفين : الدكتور طه حسين، وعباس محمود العقاد، ومصطفى صادق

(١) مقال لكامل الشناوى ، أخبار اليوم فى ١٦/ ٤/ ١٩٥٥، نقلاً عن د. جمال الدين الرمادى ، مرجع سابق، ص ١٠١ .

(٢) انظر مجلة : «الكتب وجهات نظر»، نوفمبر سنة ١٩٩٩ ، دار الشروق ، القاهرة. . والاقتباسات الواردة حول آراء أدباء العصر فى «مَىّ» مأخوذة من هذا المقال .

الرافعى، وإبراهيم عبد القادر المازنى، وأستاذ الجيل أحمد لطفى السيد، وأحمد حسن الزيات، وشيخ العروبة أحمد زكى باشا، والدكتور محمد حسين هيكل، ومترجم الإلياذة سليم البستانى، ومن رجال الصحافة المرموقين: أنطون الجميل، وخليل ثابت، وعبد القادر حمزة، وسليم سركيس، وتوفيق حبيب، وطاهر الطناحى، إلى جانب بعض كبار الساسة، وبعض الكُتَّاب الأجانب.

لكن «مطران» ظلت له مكانة خاصة بين هذا الحشد الهائل فى حياة «مَىّ»، فلقد ظهرت «مَىّ» أول ما ظهرت من تحت عباءة «مطران»، وقد حدث ذلك فى مساء الرابع والعشرين من أبريل سنة ١٩١٣، عندما أقيم فى الجامعة المصرية القديمة حفل لتكريم «خليل مطران» بمناسبة الإنعام عليه بالوسام المجيدى، وشارك فى الحفل عدد كبير من رجال الفكر والشعراء فى ذلك الوقت، وبَعَثَ الأديب المهجرى «جبران خليل جبران» من مستقره فى الولايات لمتحدة بكلمة لكى تلقى باسمه فى هذا المهرجان، فعهد إلى الآنسة «مَىّ» زيادة بإلقائها، وكانت تلك هى المرة الأولى التى تظهر فيها هذه الفتاة الأديبة، وقد فعل ظهورها فى كثير من القلوب والآذان فعل السحر، ويروى طه حسين قصة ظهور «مَىّ» فى حفل تكريم «مطران» فيقول: إنه سمع صوت «مىّ» للمرة الأولى فى الحفل العام الذى أُقيم لتكريم الشاعر «خليل مطران»، فلم يرض عن شىء مما قيل فيه، إلا صوتًا واحدًا سمعه، ولم يفهم من حديث ذلك الصوت العذب شيئًا، ولم يحاول أن يفهم من حديثه شيئًا، شغله الصوت عما كان يحمل من الحديث، كان صوت الآنسة «مَىّ» التى كانت تتحدث إلى جمهور من الناس للمرة الأولى، ولم يستطع حين أَصْبَحَ من ليلته تلك أن يمتنع عن السعى إلى أحمد لطفى السيد.. ثم مازال يدور بحديثه حتى انتهى إلى حفل «مطران»، وحتى انتهى من حفل «مطران» إلى ذكر تلك الفتاة التى تحدثت فيه، والتى لم يسمع عنها قبل يومه ذاك.

ظل «مطران» يمثل إذن نقطة الانطلاقة الأولى فى شهرة «مَىّ»، ولكنه ظل كذلك فى مجلسها يمثل «أُبُوَّةً أدبية» على حد تعبير «العقاد»، ويحتل مكانًا شديد الخصوصية على حد تعبير «المازنى»، فالعقاد يقول فى أثناء وصفه لمجلس «مَىّ» : «وكان خليل مطران، وشبلى شميل، وداود بركات، وأنطون الجميل، يسبغون أبوتهم الأدبيّة على مَىّ . . .».

أمَّا «المازنى» فيصف ما حدث فى خاتمة إحدى الجلسات بصالون «مَىّ» قائلاً : « بعد انتهاء جلسة الصالون بدأ الناس ينصرفون، وهَمَّ الأستاذ «العقاد» وهممتُ بالخروج، فأخرتنا واستبقتنا، أستغفر الله، بل استبقت أيضًا الأستاذ «خليل مطران»، وجلسنا نحن الأربعة فى حجرة الاستقبال الكبرى . . .».

هذا ، ويضم ديوان «مطران» بعض قصائد موجهة إلى «مَىّ» فى إطار الإعجاب والتقدير، مثل قصيدته إليها، وقد ترجمت كتابًا أهدته لروح أخيها، أو قصيدته التى كتبها فى أعقاب جلسة سَمَر مع والدها «إلياس زيادة» فى حضرة جماعة من أعيان مصر ولبنان، تحدث خلالها الوالد عن رغبة فارس لبنانى فى اختطافها، على جواد إعجابًا بها. . فضحك الحاضرون، وطلبوا من «مطران» أن ينظم هذا المعنى، هذا بالإضافة إلى قصيدة مؤثرة فى رثاء «مىّ»، هذه الموهبة التى ضمها التراب مبكرًا فصارت كنزًا دفينًا به، وكلها قصائد تخرج عن دائرة الإعجاب والتقدير ، ومنها قوله :

أَقْفَرَ البيتُ، أيـن نادِيـكِ يـا مَىُّ	إليــه الوفــود يختلفـونَـا ؟!
صفْــوة ُالمشرقيــن نُـبْـلاً وفَضْـلاً	فى ذُراكِ الرحيــبِ يَـعْـتَـمِـرُونَـا
فَتُســاقُ البحـوثُ فيــه ضروبًـا	ويُـدارُ الحديـث فيــه شُـجونَـا

وتُصيب القلوب وهي غِراتٌ من ثمار العقول ما يَشْتَهينَا
أبهذا الثرى ظفرتِ بِحُسْنٍ كانَ بالطُّهْرِ والعفافِ مَصُونَا ؟!
لَهْفَ نَفْسِي عَلَى حجى عبقريٍّ كانَ ذُخْرًا فَصَارَ كنزًا دفينَا !

أمَّا قصة الحب الحقيقية فى حياة «مطران»، فهى تلك القصة التى عاشها فى مصر فى فترة نضج الشباب خلال ست سنوات من عمره، ما بين سن الخامسة والعشرين والحادية والثلاثين، فى الفترة من سنة ١٨٩٧ إلى سنة ١٩٠٣، وهى القصة التى ظل يعيش ذكرياتها فى الفترة الباقية من حياته، والتى امتدت قرابة الخمسين عامًا، رحل بعدها «مطران» وقد جاوز الخامسة والسابعين بدون أن ينسى «ليلاه»، أو على حد تعبيره فى البيت الذى تَمَثَّل به فى أُخريات حياته :

فَشَابَ بنو ليلى وشاب بنو ابنها
وحُرْقَـةُ ليلى فى الفؤاد كمـا هِيَ

ويكاد يجمع الذين كتبوا عن «مطران» على الخطوط العريضة لهذه القصة[1]، إلى جانب ما يسجله الجزء الأول من ديوانه من عمل شعرى طويل، أطلق عليه عنوان : «حكاية عاشقين»، وقَدَّمَ للحكاية بقوله : «تتبع الناظم وقائعها، وكان فيها ترجمان ضمير العاشق، ولسان فؤاده»، والواقع أنها حكايته هو، وقد كُتبت فى شكل مجموعة من القصائد المتتالية، المختلفة المواقف، المتنوعة الوزن والقافية، وقد احتلت ستًّا وثلاثين صفحة

---

(١) انظر على سبيل المثال : د. جمال الدين الرمادى : «خليل مطران شاعر الأقطار العربية» الفصل الثالث . وإيليا الحاوى : «خليل مطران طليعة الشعراء المحدثين» الجزء الثانى، ود . ميشال جحا : «خليل مطران، باكورة التجديد فى الشعر العربى الحديث »، فصل «المرأة فى حياة مطران ». ود. سامى الدهان : «عبقرية خليل مطران فى الغزل والتصوير »، فى مهرجان خليل مطران، مصدر سابق .

من الديوان من القطع الكبير، وهى تكاد تشكل فى ذاتها ديوانًا مستقلاً من «الشعر العُذْرِىّ» فى الأدب العربى الحديث .

كان اللقاء الأول مصادفة فى أحد متنزهات القاهرة، سنة ١٨٩٧ ، عندما كانت فتاة من أصل نمساوى تعيش فى مصر تجلس تحت خميلة من الأشجار والزهور، فأتت «نحلة» فلسعتها فى خدها، فتألمت وصرخت، وكان «خليل مطران» قريبًا، فهرع إليها يواسيها ويُخَفِّف من ألمها، ولما علم بقصة «النحلة» داعبها قائلاً : إنها معذورة، فهى تهبط عادة على الوُرُود المتوهجة لتمتص رحيقها، ولقد ظنت الخدَّ وردة . . . وَكَتَبَ لها على الفور بيتين يسجلان ذلك المعنى، فأدركت أنه شاعر . . وكان الإعجاب المتبادل، ثم كانت مواقف التلاقى والحب، والوشاية والعتاب، والهجر والمصالحة، والقرب والابتعاد، حتى فُوجىء بالحبيبة وقد دهمها مرض عضال، فسافرت إلى بلدها، وظل يتتبع الأخبار، ويئن تحت وطأة المرض الأليم منها، ويكاد يطير فرحًا لأى خيط من الأمل الضعيف، ولكنَّ الموت عَاجَلَها فى ريعان شبابها، فبكاها بكاءً مريرًا، وظَلَّ وفيًّا لها . . وتمرُّ السنون فيستعيد ذكرياتها الجميلة، وتعرض متع الحياة فينصرف عنها . . وتمضى فترة الشباب والكهولة بدون زواج، فيبقى عزبًا طول حياته، يتغنى بمحبوبة العشرينيات ، وهو يدرج على سلم أواخر السبعينيات، موفيًا بوعده الذى قطعه لها فى إحدى قصائده الأولى أيام الوصال والعتاب :

أقسمتُ ما أشركتُ فيكِ ولم يَكُنْ ... لى فى الهوى دينٌ سوى التوحيدِ

يا عِلَّةَ الحُبِّ الصحيحِ، وصحة الحب ... العليل، وأَجْرَ كل شهيدِ

يا وردةً يرتاح جانيها وإنْ ... دميتْ يداهُ بشوكها الممدودِ

. . . .

ومكتفياً بمسَرَّة العمر الوحيدة التى عاشها فى حبها ، وأحسَّ بلوعة فقدانها بعد رحيلها ، مؤكدًا وحدانية التجربة فى واحدة من مراثيه لها ، والتى أطلقها بعد سنوات طويلة من غيابها :

سُرِرْتُ فى العمر مَرَّةْ ... وكُنْتِ أنتِ المسَرَّةْ
كانت حياتىَ رَوْضًا ... وكنتِ فى الرَّوْضِ نضرَةْ
وكان غصنًا شبابِى ... وكنتِ فى الغصن زَهْرَةْ
وكان فكرى سماء ... وكان حبك فجرهْ
وكان حُسْنُكِ يُوحِى ... إلى يَراعِىَ سرَّهْ
وكان لَحْظُكِ يهدى ... إلى بيانىَ سِحْرَهْ
وكان ثَغْرُكِ يملى ... عَلَى سماعىَ دُرَّهْ
وكان طِيبُكِ يهدى ... إلى ثنائى نَشْرَهْ
وكُنْتِ للروح رُوحًا ... وكنْتِ للعين قُرَّةْ
قد كان هذا ولكنْ ... مَضَى وخَلَّفَ حَسْرَةْ
فَبِتُّ لا شَىْءَ إلاَّ ... حَالَيْنِ : ذِكْرَى وعِبْرَةْ !!

* * *

وكانت هذه المرحلة قد أنتجت ـ فيما أنتجت من شعر «مطران» ـ رائعته «المساء» ، التى تُعَدُّ واحدةً من فرائد شعر الغَزَل فى الأدب العربى الحديث ، وكان قد كتبها فى «مكس الإسكندرية» عندما وقع صريع الضعيفين : الهوى والمرض :

يــــا للضعيفيـــن استبّدا بــى ومـا ... فى الظلــم مثـلُ تحكُّـمِ الضُّـعَـفَـاءِ
قَـلْـبٌ أَذَابَـتْـهُ الصَّـبَـابَةُ والْـجَوَى ... وَغِــلاَلَــةٌ رَثَّـــتْ مِــــن الأَدْوَاءِ
والـــروح بينهمـا نسيــــمُ تَـنَـهُّـدٍ ... فى حـالــى التصويـب والصّعـداءِ
عَـبَـثٌ طَـوافِى فى البــلاد، وعِـلَّـةٌ ... فى عِـلَّـــةٍ مَـنْـفَـاىَ لاستـشـفـاءِ
مُـتَـفَـرِّدٌ بصبـابتى، مُـتَـفَـرِّدٌ ... بكـآبـتى ، متـفـرّدٌ بِـعَـنـائِــى
شاكٍ إلى البحر اضْطِرَابَ خَواطِرِى ... فيجيـبـنـى بـريـاحـه الـهَـوْجَـاءِ
ثـــاوٍ عـلى صـخـر أَصَمَّ ولَـيْتَ لى ... قَـلْـبًا كهـذِى الصَّـخْـرَةِ الصَّـمَّـاءِ
ينتـابهـا مـوجٌ كمـوجِ مَكـارِهـى ... وَيـفـتُّـهـا كالسّـقْـم فى أعضـائـى
والبحـــر خفـــاقُ الجوانبِ ضائقٌ ... كمـدًا كصـدرى ساعـــة الإمسـاءِ
تغشــى البـريــــةَ كـدرة وكأنهـــا ... صعدت إلى عَـيْـنَـىَّ من أحشـائـى

لقد أراد « مطران » ـ كما يقول أحد دارسيه ـ [(١)] « أن يسد النقص فى قصص الحب لعصره، فيملأ الخالى من «حافظ»، ويوضح الخفىّ من «شوقى»، بل لعله أراد أن ينتصر لهذا اللون فى معركة الشعر على قصص «جميل» جديد » .

وهو من بعض الزوايا قد حقق للمرة الأولى فى ذلك العصر، بصمة الشاعر الذاتية على شعره، وهى البصمة التى شكا «العقاد» فيما بعد من اختفائها فى شعر أمير الشعراء «أحمد شوقى»، وَشَنَّ لهذا السبب عليه حملة ضارية فى كتابه المشهور «الديوان»، الذى مَسَّ إلى جانب شوقى حافظ إبراهيم ، دون التعرض لـ «مطران» زعيم المجددين .

* * *

(١) د. سامى الدهان ، مرجع سابق ، ص ١٢٤ .

الشاعر والنجم

أَرَى مِثْـلَ سُهْدِيَ فِي الكَـوْكَـبِ   أَحَـلَّ بِـهِ مِثْلُ مَـا حَـلَّ بِـي؟
يَـــهِــمُ هُيَـامِــيَ مِــنْ وَجْـدِهِ   وَيَهْرُبُ مِــنْ مَهْـدِهِ مَهْــرَبِـي
وَنَــجْـتَازُ هَــذَا الفَضَـاءَ رَحِيبًـا   فَـأَمَّــا بِنَـا فَهْـوَ لَمْ يَـرْحُـبِ
إِذَا سِرْتُ بَحْــــراً أَرَاهُ بِــــهِ   أَنِيسِــيَ عَـنْ جَـانِـبِ المَرْكَـبِ
وَإِنْ سِرْتُ بَــرًّا يُجَارِى خُطَــاىَ   فَفِــى الشَّرْقِ آنًــا وَفِي المَغْــرِبِ
رَفِيــقَ السُّرَى فِيـكَ جَمْرٌ يُـذِيـبُ   وَإِنْ سَـالَ كَـالمَدْمَـعِ الصَّيِّـبِ
أَسِرَّ هَــوَاكَ إِلَى صَــاحِــبِ   يُـؤَاخِيـكَ فِي هَمِّكَ المُنْصِـبِ [1]
أَمَــا كُــلُّ ذِى كَلَــفٍ مُتْعِــبٌ   شَرِيـكٌ لِذِى الكَلَـفِ المُتْعِـبِ؟ [2]

* * *

فَيَـا لَـكَ مِــنْ صَـامِـتٍ نَـاطِـقٍ   وَيَـا لَـكَ مِــنْ مُعْجِــمٍ مُعْــرِبِ
أَنِيــسٍ عَلَى مَــا بِــهِ مِــنْ أَسًــى   شَجِـــيِّ التَّبَسُّــمِ مُسْتَعْــذَبِ

---

(١) المنصب : المتعب .
(٢) كلف : غرام .

مَشُــوقٍ إِلى الشَّمْــسِ طَــلاَّبِهَا   مُجِدٍّ عَلَى شِقَّـــةِ المَطْلَـــبِ
إِذَا كَــلَّ جَهْدًا فَــأَغْضَى بَـدَتْ   وَإِنْ هَــبَّ يَــرْقُبُهَــا تَحْتَبِـــى
عَــذِيــرُكَ مَــنْ أَنْـتَ مِــرْآتُــهُ   بِحُبِّـــكَ وَالأَمَـــلِ الأَخْيَـــبِ

* * *

وَبِى مِثْــلُ مَـا بِكَ مِـنْ شَـاغِلٍ   وَلِى مِثْــلُ مَــا لَــكَ مِــنْ مَــأْرَبِ
فَتَـاةٌ كَصَـــوْغِ الضِّيَـــاءِ إِلَيْهَــا تَنَـاهَــتْ مُنَـى قَلْبِــىَ المُوصَــبِ [1]
مِـــنَ الحُورِ دَانَ فُـــؤَادِى بِهَا   وَوَحَّـــدَهَـــا الحُبُّ فِى مَـذْهَبِــى
فَــإِنْ كُنْتَ يَـا نَجْـمُ طَـالَعْتَهَـا   وَقَـدْ سَفَـرَتْ لَــكَ فِى مَـرْقَــبِ
فَــأَنْــتَ إِذَنْ فِى الهَوَى عَــاذِرِى   وَلَسْــتَ لِسُهْـــدِى بِمُسْتَغْـــرِبِ

* * *

(1) الموصب : المريض .

صورة نابليون فى عيون جنوده

وَكَــانَ فَتَــى لَــه سِيمَا زَعِيــمِ ... يُنَكِّــرُهُ التَّفَــرُّدُ وَالظَّــلاَمُ
عَــرِيــضُ الجَبْهَــةِ الغَــرَّاءِ يَبْــدُو ... بِهَا شَعْـــــــــرٌ كَما رَقَّ الْغَمَامُ
حَــدِيــدُ النَّــاظِــرَيْــنِ إِذَا أُثِيرَا ... فَمِصْبَــاحَــانِ مِلْــؤُهُمَا ضِرَامُ [1]
تَـــــرَاهُ العَيْنُ جَبَّـــــارًا عَظِيمًا ... لِهَيْبَتِـــــهِ وَإِنْ قَصُرَ الْقَـــــوَامُ
يَمُــرُّ بِهِمْ وَقَــدْ ثَمِلُــوا افْتِخَــارًا ... وَإِعْيَـــــاءً فَكُلُّهُـــمْ نِيَــــامُ
إِذَا تَعِــبَ الْجُنُــودُ فَلَيْــسَ بِــدْعٌ ... بِــــأَلاَّ يَتْعَــبَ المَلِــــكُ الهُمَامُ
فَطَــافَ بِهِمْ وَبِـالجَرْحَــى افْتِقَــادًا ... وَكَــــانَ مَبَرَّةً مِنْــــهُ اللِّمَامُ [2]
وَفَــارَقَهُــمْ إِلَى حَيْــثُ اسْتَقَــرَّتْ ... مِــنَ القَتْلَى الْجَمَاجِــمُ وَالْعِظَــامُ
يُشَــاهِــدُ مَــا جَنَــاهُ قَــرِيــرَ عَيْنٍ ... وَلاَ حَــــرَجٌ عَلَيْــــهِ وَلاَ مَــلاَمُ
فَمَا اسْتَرْعَـــاهُ إِلاَّ صَــــوْتُ عَـــانٍ ... بِجَــانِبِــهِ يُصَــارِعُــهُ الْحِمَامُ
دَنَـــا لِيُغِيثَــــهُ فَــأَمَــالَ رَأْسًــا ... لَــهُ عَنَــتِ الْقَيَــاصِرَةُ الْعِظَــامُ

(١) حديد : حاد .
(٢) اللمام : الافتقاد .

وَأَلْقَــى رُكْبَتَيْــهِ عَلَى صَعِيــدٍ ... يُمَازِجُ تُــرْبَــهُ الــدَّمُ وَالْحُطَــامُ [1]

عَتِــيٌّ مَــا جَثَــا للهِ إِلاَّ ... وَمَــرْكَعُــهُ عَلَى عَمَــدٍ يُقَــامُ

فَحَلَّ عَــنِ الْفَتَى ثَوْبًا خَضِيبًا ... كَــأَنَّ ثُقُــوبَــهُ فِيــهِ كِــلاَمُ [2]

وَأَبْصَرَ فِي تَــرَائِبِــهِ صُــدُوعًــا ... عَلَى دَخَــلٍ يَغِــرُّ لَهَا الْتِئَــامُ [3]

فَلَمَّا ثَــابَ لِلعَــانِــي شُعُــورٌ ... نَفَاهُ الضَّعْــفُ عَنْهُ وَالسَّقَــامُ [4]

وَأَدْرَكَ مَــنْ بِجَــانِبِــهِ تَــرَاءَى ... بِطَــرْفَيْــهِ الكَلِيلَيْنِ اضْطِــرَامُ

أَرَادَ إِبَــانَــةً عَمَّا تَنَــادَتْ ... جَــوَارِحُــهُ بِــهِ فَعَصَــى الْكَــلاَمُ

فَغَضَّ الطَّــرْفَ ثُــمَّ رَنَــا فَــأَلْقَــى ... مُفَــاضَتَــهُ يُضِــيءُ بِهَا وِسَــامُ

فَجَمَّــعَ مَــا تَبَقَّــى مِــنْ قُــوَاهُ ... وَأَسْعَــدَهُ عَلَى النُّطْــقِ الــذِّمَــامُ

فَصَاحَ : «فِدَاكَ يَا مَلِكِي حَيَاتِي» ... وَمَــاتَ وَفِي مُحَيَّــاهُ ابْتِسَــامُ

* * *

(١) صعيد : أرض . حطام : ما تكسر من اليبس .
(٢) كِلام : جراح .
(٣) ترائب : عظام الصدر . دخل : غش .
(٤) ثاب : رجع .

نابليون والسماء

قَالُوا « لِنَابُلْيُونَ » ذَاتَ عَشِيَّةٍ   إِذْ كَانَ يَرْقُبُ فِي السَّمَاءِ الأَنْجُمَا
هَلْ بَعْدَ فَتْحِ الأَرْضِ مِنْ أُمْنِيَّةٍ ؟   فَأَجَابَ : أَنْظُرُ كَيْفَ أَفْتَتِحُ السَّمَا

* * *

الحمامتــان

يَــا مَــنْ أَضَــاعُــوا وِدَادِى رُدُّوا عَلَىَّ فُــــــؤَادِى
رُدُّوا سُرُورًا تَقَضَّـــــى وَمَــا لَــهُ مِــنْ مَعَــادِ
أَشْكُـــو إِلَى اللهِ سُقْمِـــى فِى بُعْـدِكُـــمْ وَسُهَــادِى
هَــذَا شَقَــائى فِيكُــمْ يَــا غِبْطَــةَ الْحُسَّــادِ

* * *

وَلَيْلَــةٍ بِــتُّ فِيهَــا وَقَــدْ جَفَــانِــى رُقَــادِى
تُفْنِــى الـدَّقَــائِقُ قَلْبِــى وَرَيَّــا كَــوَرْيِ الــزِّنَــادِ (١)
مِــنَ الصَّبَــابَــةِ مَهْــدِى وَمِــنْ سَقَــامِــى وِسَــادِى (٢)
رَاعَــتْ حَشَــاىَ بِنَــوْحٍ حَمَامَــــةٌ فِى ارْتِيَــــادِ
مُــرْتَــاعَــةٌ لأَلِيــفٍ لَمْ يَــأْتِ فِى المِيعَــادِ

---

(١) ورى الزناد : قدح الزناد .
(٢) وسادى : فراشى .

تُرِنُّ إرْتَانَ ثكْلَى … مَفقُودَةِ الأَوْلاَدِ

واللَّيْلُ دَاجٍ كَثِيفٌ … كَأَنَّهُ فِي حِدَادِ

تَرُوحُ فِيهِ وَتَغْدُو … كَثِيرَةَ التَّرْدَادِ

مَا بَيْنَ غُصْنٍ وَغُصْنٍ … لَهَا طَوَافُ افْتِقَادِ

وَلَمْ تَزَلْ فِي هُيَامٍ … وَحَيْرَةٍ وَجِهَادِ

حَتَّى اسْتَقَرَّتْ عَيَاءً … مِنْ وَثْبِهَا المُتَمَادِي

مُنْحَلَّةَ الْعَزْمِ لَيْسَتْ … تَقْوَى عَلَى الإِنْشَادِ

ظَمْأَى إِلَى المَوْتِ رَيَّا … مِنَ الأَسَى وَالْبِعَادِ (١)

وَكَانَ يَسْعَى إِلَيْهَا … أَلِيفُهَا غَيْرَ هَادِي

يَرْتَادُ كُلَّ مَكَانٍ … فِي إِثْرِهَا وَهْوَ شَادِي

حَتَّى إِذَا سَمِعَتْهُ … بِالْقُرْبِ مِنْهَا يُنَادِي

عَادَ الرَّجَاءُ إِلَيْهَا … لَكِنْ بِغَيْرِ مُفَادِ

إِنَّ الرَّجَاءَ مُعِينٌ … وَمَا الرَّجَاءُ بِفَادِ

هَمَّتْ تَطِيرُ إِلَيْهِ … لَكِنْ عَدَتْهَا عَوَادِي

فَوَدَّعَتْهُ بِنَوْحٍ … مُفَتِّتِ الأَكْبَادِ

وَكَانَ آخِرَ سَجْعٍ … لَهَا عَلَى الأَعْوَادِ

* * *

يَا مَنْ نَأَوْا عَنْ عُيُونِي … وَرَسْمُهُمْ فِي السَّوَادِ

---

(١) ريّا : مرتوية .

وَأَجْهَدُوا الفِكْرَ وَثْبًا إِلَيْهِمُ فِي الْبِلَادِ
وَاسْتَنْفَدُوا زَفَرَاتِي وَأَدْمُعِي وَمِدَادِي
إِلَامَ أَغْدُو حَزِينًا فِي غُرْبَةٍ وَانْفِرَادِ ؟
لِي فِي الْحَيَاةِ مُرَادٌ وَأَنْ أَرَاكُمْ مُرَادِي
لاَ تَجْعَلُوهُ وَدَاعِي عِنْدَ المَمَاتِ وَزَادِي

* * *

العصفـــور

كُنَّـــا وَقَـــدْ أَزِفَ المَسَـــاءُ نَمْشِـــى الهُوَيْنَـــا فِى الْخَلاَءْ
ثَمِلَيْنِ مِـــــنْ خَمْرِ الهَوَى طَـــرِبَيْنِ مِـــنْ نَغَـــمِ الْهَوَاءْ
مُتَشَـــاكِيَيْنِ هُمُومَنَـــا وَكَثِيرُهَـــا مَحْضُ اشْتِكَـــاءْ
حَتَّـــى إِذَا عُـــدْنَـــا عَلَى صَـــوْتِ المُؤَذِّنِ بِـــالْعِشَـــاءْ
سِرْنَـــا بِجَـــانِـــبِ مَنْـــزِلٍ مُتَطَـــامِـــنٍ وَاهِـــى الْبِنَـــاءْ
فَـــاسْتَـــوْقَفَتْنِـــى وَانْبَرَتْ وَثْبًـــا كَمَا تَثِـــبُ الظِّبَـــاءْ
حَتَّـــى تَـــوَارَتْ فِيـــهِ عَنِّـــى فَـــانْتَظَـــرْتُ عَلَى اسْتِيَـــاءْ
وَارْتَبْـــتُ فِى الأَمْـــرِ الَّـــذِى ذَهَبَـــتْ إِلَيْـــهِ فِى الْخَفَـــاءْ
فَتَبِعْتُهَـــا مُتَضَـــائِلاً أَمْشِـــى وَيَثْنِينِـــى الْحَيَـــاءْ
فَـــرَأَيْـــتُ أُمًّـــا بَـــادِيًـــا فِى وَجْهِهَـــا أَثَـــرُ الْبُكَـــاءْ
وَرَأَيْـــتُ وُلْـــدًا سَبْعَـــةً صُبُراً عِجَـــافًـــا أَشْقِيَـــاءْ
سُـــودَ المَلاَبِـــسِ كَـــالـــدُّجَـــى حُمْرَ المَحَـــاجِـــرِ كَـــالـــدِّمَـــاءْ
وَكَـــأَنَّ «لَيْلَى» بيْنَهُـــمْ مَلَـــكٌ تَكَفَّـــلَ بِـــالْعَـــزَاءْ

وَهَبَتْ فَأَجْزَلَتِ الْهِبَا ... تِ وَمِنْ أَيَادِيهَا الرَّجَاءْ
فَخَجِلْتُ مِمَّا رَابَنِي ... مِنْهَا وَعُدْتُ إِلَى الْوَرَاءْ
وَبَسَمْتُ إِذْ رَجَعَتْ فَقُلْتُ : كَذَا التَّلَطُّفُ فِي الْعَطَاءْ
فَتَنَصَّلَتْ كَذِبًا وَلَمْ ... يَسْبِقْ لَهَا قَوْلُ افْتِرَاءْ
وَلَرُبَّمَا كَذَبَ الْجَوَا ... دُ فَكَانَ أَصْدَقَ فِي السَّخَاءْ
فَأَجَبْتُهَا أَنِّي رَأَيْتُ وَلاَ تُكَذِّبُ عَيْنُ رَاءْ
لاَ تُنْكِرِي فَضْلاً بَدَا ... كَالصُّبْحِ نَمَّ بِهِ الضِّيَاءْ
يُخْفِي الْكَرِيمُ مَكَانَهُ ... فَتَرَاهُ أَطْيَارُ السَّمَاءْ

* * *

ثُمَّ انْثَنَيْنَا رَاجِعَيْنِ وَمِلْءُ قَلْبَيْنَا صَفَاءْ
مُتَفَكِّهَيْنِ مِنَ الأَحَا ... دِيثِ الْعِذَابِ بِمَا نَشَاءْ
فَإِذَا عُصَيْفِيرٌ هَوَى ... مِنْ شُرْفَةٍ بِيَدِ الْقَضَاءْ
عَارٍ صَغِيرٌ وَاجِفٌ ... لَمْ يَبْقَ مِنْهُ سِوَى الذَّمَاءْ (١)
ظَمْآنُ يَطْلُبُ رِيَّهُ ... جَوْعَانُ يَلْتَمِسُ الْغِذَاءْ
وَلَشَدَّ مَا سُرَّتْ بِهذَا الضَّيْفِ « لَيْلَى » حِينَ جَاءْ
فَرِحَتْ بِطِيبِ لِقَائِهِ ... فَرَحَ الْمُفَارِقِ بِاللِّقَاءْ
وَاسْتَنْفَدَتْ لِبَقَائِهِ ... حِيَلَ الْحَرِيصِ عَلَى الْبَقَاءْ
تَحْنُو عَلَيْهِ كَأُمِّهِ ... وَتَضُمُّهُ ضَمَّ الإِخَاءْ

---

(١) الذَّماء : بقية الروح فى المذبوح وغيره .

فَحَمِدْتُ مِنْهَا بِرَّهَا بِالْبَائِسِينَ الأَشْقِيَاءْ

قَالَتْ : وَهَلْ لَهُوٌ بِعُصْفُورٍ جَدِيرٌ بِالثَّنَاءْ ؟

فَأَجَبْتُهَا : هِيَ آيَةٌ للهِ فِيكِ بِلاَ مِرَاءْ

يُخْفِي الكَرِيمُ مَكَانَهُ فَتَرَاهُ أَطْيَارُ السَّمَاءْ

* * *

عدل كسرى وجبروته

سَجَـدُوا لِكِسْرَى إِذْ بَـدَا إِجْـلاَلاَ   كَسُجُـودِهِـمْ لِلشَّمْسِ إِذْ تَتَـلاَلاَ
يَا أُمَّـةَ الْفُرْسِ الْعَـرِيقَةَ فِي العُـلاَ   مَاذَا أَحَالَ بِـكِ الْأُسُودَ سِخَالاَ ؟ (١)
كُنْتُـمْ كِبَـاراً فِي الْحُرُوبِ أَعِـزَّةً   وَالْيَـوْمَ بِتُّـمْ صَـاغِـرِيـنَ ضِئَـالاَ
عُبَّـادَ «كِسْرَى» مَـانِحِيـهِ نُفُـوسَكُـمْ   وَرِقَـابَكُـمْ وَالعِـرْضَ وَالأَمْـوَالاَ
تَسْتَقْبِلُـونَ نِعَـالَـهُ بِـوُجُـوهِكُـمْ   وَتُعَفِّـرُونَ أَذِلَّـةً أَوْكَـالاَ (٢)
التِّبْرُ « كِسْرَى » وَحْـدَهُ فِي فَـارِسٍ   وَيَعُـدُّ أُمَّـةَ فَـارِسٍ أَرْذَالاَ
شَرُّ الْعِيَـالِ عَلَيْهِـمُ وَأَعَقُّهُـمْ   لَهُمُ وَيَـزْعُمُهُـمْ عَلَيْـهِ عِيَـالاَ
إِنْ يُـؤْتِهِمْ فَضْـلاً يَمُـنَّ وَإِنْ يَـرُمْ   ثَـأْراً يُبِـدْهُـمْ بِـالْعَـدُوِّ قِتَـالاَ
وَإِذَا قَضَـى يَـوْمًـا قَضَـاءً عَـادِلاً   ضَرَبَ الأَنَـامُ بِعَـدْلِـهِ الأَمْثَـالاَ

* * *

(١) سخالا : أولاد الشاة .
(٢) أذلة أوكالا : ضعافاً جبناء .

مَا كَانَ « كِسْرَى » إِذْ طَغَى فِي قَوْمِهِ ... إِلاَّ لِمَا خَلُقُوا بِهِ فَعَّالاَ [1]

هُمْ حَكَّمُوهُ فَاسْتَبَدَّ تَحَكُّمًا ... وَهُمُ أَرَادُوا أَنْ يَصُولَ ، فَصَالاَ

وَالجَهْلُ دَاءٌ قَدْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ... فِي الْعَالَمِينَ وَلاَ يَزَالُ عُضَالاَ

لَوْلاَ الْجَهَالَةُ لَمْ يَكُونُوا كُلُّهُمْ ... إِلاَّ خَلاَئِقَ إِخْوَةً أَمْثَالاَ

لَكِنَّ خَفْضَ الأَكْثَرِينَ جَنَاحَهُمْ ... رَفَعَ المُلُوكَ وَسَوَّدَ الأَبْطَالاَ

وَإِذَا رَأَيْتَ المَوْجَ يَسْفُلُ بَعْضُهُ ... أَلْفَيْتَ تَالِيَهُ طَغَى وَتَعَالَى

* * *

(١) خلقوا به : استحقوه .

المســـــاء

(قال الناظم وهو عليل فى مكس الإسكندرية)

دَاءٌ أَلَمَّ فخِلْــتُ فِيــهِ شِفَــائِى ... مِنْ صَبْـوَتِى ، فَتَضَاعَفَتْ بُـرَحَائِى

يَـا لِلضَّعِيفَيْنِ ! اسْتَبَـدَّا بِـى وَمَـا ... فِى الظُّلْـمِ مِثْـلُ تَحَكُّـمِ الضُّعَفَـاءِ

قَلْـبٌ أَذَابَتْـهُ الصَّبَـابَـةُ وَالْجَوَى ... وَغِـلالَـةٌ رَثَّـتْ مِـنَ الأَدْوَاءِ

وَالــرُّوحُ بَيْنَهُمَا نَسِيـمُ تَنَهُّــدِ ... فِى حَـالَىِ التَّصْـوِيـبِ وَالصُّعَـدَاءِ

وَالْعَقْـلُ كَـالمِصْبَاحِ يَغْشَـى نُـورَهُ ... كَـدَرِى وَيُضْعِفُـهُ نُضُـوبُ دِمَـائِى

* * *

هَـذَا الَّـذِى أَبْقَيْتِــهِ يَـا مُنْيَتِـى ... مِـنْ أَضْلُعِى وَحَشاشَتِى وَذَكَـائى

عُمْرَيْـنِ فِيكِ أَضَعْتُ لَـوْ أَنْصَفْتِنِى ... لَمْ يَجْدُرَا بِتَــأَسُّفِــى وَبُكَــائى

عُمْـرَ الْفَتَـى الْفَـانِى وَعُمْـرَ مُخَلَّـدِ ... بِبَيَـانِــهِ لَـوْلاَكِ فِى الأَحْيَــاءِ

فَغَـدَوْتُ لَمْ أَنْعَـمْ كَـذِى جَهْـلٍ وَلَمْ ... أَغْنَـمْ كَـذِى عَقْـلٍ ضَمَانَ بَقَـاءِ

* * *

يَــا كَـوْكَبـا مَــنْ يَهْتَـدِى بِضِيَــائِهِ ... يَهْدِيــهِ طَـالِــعُ ضِلَّــةٍ وَرِيَــاءِ

يَــا مَـوْرِداً يَسْقِــى الـوُرُودَ سَرَابُــهُ ... ظَمَــــأً إِلَى أَنْ يَهْلِكُــــوا بِظَمَاءِ

يَـا زَهْـرَةً تُحْيِى رَوَاعِـىَ حُسْنِهَـا ... وَتُمِيـتُ نَـاشِقَهَـا بِـلاَ إِرْعَـاءِ [1]
هَـذَا عِتَـابُـكِ ، غَيْرَ أَنِّـىَ مُخْطِـىءٌ ... إِيـرَامُ سَعْـدٌ فِى هَـوَى حَسْنَـاءِ
حَاشَاكِ بَلْ كُتِبَ الشَّقَاءُ عَلَى الْوَرَى ... وَالْحُبُّ لَمْ يَبْرَحْ أَحَـبَّ شَقَـاءِ
نِعْمَ الضَّـلاَلَةُ حَيْـثُ تُؤْنِـسُ مُقْلَتِى ... أَنْـوَارُ تِلْـكَ الطَّلْعَـةِ الـزَّهْـرَاءِ
نِعْـمَ الشِّفَـاءُ إِذَا رَوِيـتُ بِـرَشْفَـةٍ ... مَكْـذُوبَـةٍ مِـنْ وَهْـمِ ذَاكَ الْمَاءِ
نِعْـمَ الْحَيَـاةُ إِذَا قَضَيْـتُ بِنَشْقَـةٍ ... مِـنْ طِيـبِ تِلْـكَ الـرَّوْضَـةِ الْغَنَّاءِ

* * *

إِنِّـى أَقَمْـتُ عَلَى التَّعِلَّـةِ بِـالْمُنَـى ... فِى غُـرْبَـةٍ قَـالُوا : تَكُـونُ دَوَائِى
إِنْ يَشْفِ هَـذَا الجِسْمَ طِيبُ هَـوَائِهَا ... أَيُلَطِّـفُ النِّيرَانَ طِيـبُ هَـوَاءِ ؟
أَوْ يُمْسِـكِ الْحَوْبَـاءَ حُسْنُ مُقَـامِهَـا ... هَلْ مَسْكَـةٌ فِى البُعْدِ لِلْحَـوْبَاءِ ؟ [2]
عَبَـثٌ طَـوَافِى فِى الْبِـلاَدِ وَعِلَّـةٌ ... فِى عِلَّـةٍ مَنْفَـاىَ لاسْتِشْفَـاءِ
مُتَفَـرِّدٌ بِصَبَـابَتِـى ، مُتَفَـرِّدٌ ... بِكَـآبَتِـى ، مُتَفَـرِّدٌ بِعَنَـائِى
شَاكٍ إِلَى البَحْرِ اضْطِـرَابَ خَوَاطِرِى ... فَيُجِيبُنِـى بِـرِيَـاحِـهِ الهَوْجَـاءِ
ثَـاوٍ عَلَى صَخْـرٍ أَصَـمَّ وَلَيْـتَ لِى ... قَلْبًـا كَهَـذِى الصَّخْـرَةِ الصَّمَّاءِ
يَنْتَـابُهَا مَـوْجٌ كَمَـوْجِ مَكَـارِهِـى ... وَيَفُتُّهَـا كَـالسُّقْـمِ فِى أَعْضَـائِى
وَالْبَحْـرُ خَفَّـاقُ الْجَوَانِـبِ ضَـائِقٌ ... كَمَدًا كَصَدْرِى سَـاعَـةَ الإِمْسَـاءِ
تَغْشَـى الْبَرِيَّـةَ كُـدْرَةٌ وَكَـأَنَّهَا ... صَعِـدَتْ إِلَى عَيْنَـىَّ مِـنْ أَحْشَـائِى

---

(١) رواعى : العيون التى ترعى . بلا إرعاء : بلا إبقاء عليه .

(٢) يمسك الحوباء : يحفظ الروح .

وَالْأُفْـقُ مُعْتَكِـرٌ قَـرِيـحٌ جَفْنُـهُ   يُغْضِـي عَلَى الْغَمَـرَاتِ وَالْأَقْـذَاءِ

* * *

يَـا لِلْغُـرُوبِ ، وَمَـا بِـهِ مِـنْ عِبْرَةٍ   لِلْمُسْتَهَـامِ ! وَعِبْرَةٍ لِلـرَّائِي !

أَوَلَيْـسَ نَـزْعًـا لِلنَّهَـارِ وَصَرْعَـةً   لِلشَّمْـسِ بَيْنَ مَآتِـمِ الْأَضْـوَاءِ ؟

أَوَلَيْـسَ طَمْسًـا لِلْيَقِينِ وَمَبْعَثًـا   لِلشَّـكِّ بَيْنَ غَـلَائِلِ الظَّلْمَاءِ ؟

أَوَلَيْـسَ مَحْوًا لِلْوُجُـودِ إِلَى مَـدًى   وَإِبَـادَةً لِمَعَـالِمِ الْأَشْيَـاءِ ؟

حَتَّـى يَكُـونَ النُّـورُ تَجْدِيـدًا لَهَا   وَيَكُـونَ شِبْهَ الْبَعْثِ عَـوْدُ ذُكَـاءِ [1]

* * *

وَلَقَـدْ ذَكَـرْتُـكِ وَالنَّهَـارُ مُـوَدِّعٌ   وَالْقَلْـبُ بَيْنَ مَهَـابَـةٍ وَرَجَـاءِ

وَخَـوَاطِرِي تَبْدُو تُـجَاهَ نَـوَاظِرِي   كَلْمَى كَدَامِيَـةِ السَّحَـابِ إِزَائِي [2]

وَالدَّمْـعُ مِنْ جَفْنِي يَسِيـلُ مُشَعْشَعًا   بِسَنَـى الشُّعَـاعِ الْغَـارِبِ الْمُتَرَائِي

وَالشَّمْـسُ فِي شَفَـقٍ يَسِيـلُ نُضَـارُهُ   فَـوْقَ الْعَقِيـقِ عَلَى ذُرًى سَـوْدَاءِ [3]

مَـرَّتْ خِـلَالَ غَمَامَتَيْنِ تَحَدُّرًا   وَتَقَطَّـرَتْ كَـالـدَّمْعَـةِ الْحَمْـرَاءِ

فَكَـأَنَّ آخِـرَ دَمْعَـةٍ لِلْكَـوْنِ قَـدْ   مُـزِجَـتْ بِـآخِـرِ أَدْمُعِـي لِـرِثَـائِي

وَكَـأَنَّنِـي آنَسْـتُ يَـوْمِـي زَائِلًا   فَـرَأَيْـتُ فِي الْمِرْآةِ كَيْـفَ مَسَـائِي

---

(١) ذُكَاءِ : الشمس .

(٢) كَلْمَى : جريحة .

(٣) ذُرًى : مرتفعات .

اعتذار للمحبوب

لَـكِ الأَمْرُ إِنْ أَنْصَفْتِنِـى فَكَفَـى غُنْمَا   وَإِنْ تَظْلِمِـى فَـالحُبُّ شَـاءَ وَلا إِثْمَا

وَلَكِنَّنِـى أَخْشَى ارْتِيَـابَـكِ فِى الهوَى   فَـإِنِّـى إِذَنْ مِــنْ دُونِـهِ أُوثِـرُ الظُّلْمَا

أَبِيـتُ طِوَالَ اللَّيْـلِ وَالدَّاءُ مُسْهِـدِى   أُعَنِّـفُ نَفْسِى وَهْـىَ لَمْ تَقْتَرِفْ جُرْمَـا

عَلَى ذِكْرِ عَهْـدٍ كَانَ لِى مِنْـكِ مَوْعِـدٌ   بِتَجْـدِيـدِهِ لَـوْ لَمْ تَحُلْ دُونَـهُ الحُمَّـى

عَـدَتْ فَعَــدَتْ دُونَ المَزَارِ وَلَمْ أَكُـنْ   بِمُسْتَـأْخِـرٍ لَـوْ أَنَّ لِى مَعَهَــا عَـزْمَـا

فَفِى الجِسْمِ نَارٌ يَلْـذَعُ القَلْبَ وَقْدُهَا   وَفِى القَلْـبِ نَارٌ مِثْلُهَـا تَلْـذَعُ الجِسما

وَيَنهَضُ بِى حُبِّى إِذَا الشَّـوْقُ هَاجَهُ   وَيَقْعُـدُ بِـالجِسْـمِ الكَــلاَلُ إِذَا هَمَّا

* * *

وَلَيْــلٍ بِــهِ طُفْنَــا الجَزِيــرَةَ كُلَهَا   تَـذَكَّرْتُـهُ لاَ تَدْمَـعُ العَيْنُ بَـلْ تَدْمَـى

كَــأَنَّ غُبَــارًا أَحْـدَثَتْـهُ جِيَــادُنَــا   كَسَا الكَوْكَبَ الـدُّرِّىَّ مِنْ كَدَرٍ سُقْمَا

كَــأَنَّ الـدُّجَـى سَـوَّرَتَنَـا بِسَرَادِقٍ   وَسَمَّـرْتَـهُ بِالشُّهْـبِ حَبْسًـا لِمَنْ ضَمَّا

نَسِيرُ بِقُـرْبِ النِّيـلِ وَهْــوَ مُخَضَّــبٌ   عَلَى أَنَّــهُ كَــالنَّصْـلِ فِى كَبِـدِ الظَّلْمَا

وَيَــرنُــو إِلَيْنَـا مِــنْ بَعِيــدٍ بِعَيْنِــهِ   سِرَاجٌ رَقِيـبٌ ثُـمَّ يُغْمِضُهَــا لَـؤْمَـا

وَتُبْدِي لَنَا الأَغْصَانُ شِبْهَ تَحِيَّةٍ وَتَسْتَقْبِلُ الأَرْوَاحُ أَوْجُهَنَا لَثْمَا
كَأَنَّ لَنَا الدُّنْيَا وَمَا فِي سَمَائِهَا وَمَا دُونَهَا مُلْكاً وَأَنَّ لَنَا الحُكْمَا

* * *

وَلَكِنَّهُ عَهْدٌ مَضَى أَسْتَعِيدُهُ لَدَى يَقْظَتِي ذِكْرًا وَفِي رَقْدَتِي حُلْمَا
وَأَسْأَلُ فِي البُحْرَانِ طَيْفَكِ زَوْرَةً تُخَفِّفُ عَنِّي ذَلِكَ الأَلَمَ الجَمَّا
فَلاَ حُسْنَ إِلاَّ حُسْنُهُ إِذْ ضَمَمْتُهُ وَلاَ صِحَّةٌ إِلاَّ سَقَامِي وَقَدْ ضَمَّا
إِذَنْ رُمْتُ أَلاَّ أَبْرَحَ الدَّهْرَ ذَاهِلاً لأَشْفِيَ مِنْهُ وَجْدَ قَلْبِي وَلَوْ وَهْمَا
أُحِبُّكِ حَتَّى لاَ سُرُورَ وَلاَ مُنًى وَلاَ شَمْسَ إِلاَّ أَنْ أَرَاكِ وَلاَ نَجْمَا
أُحِبُّكِ حَتَّى يُنْكِرَ الحُبُّ رُسْلَهُ جَمِيلاً وَقَيْسًا وَالأُولَى اسْتُشْهِدُوا قِدْمَا
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِي المَوْتِ سَلْوَى أَخَافُهَا لأَحْبَبْتُ حَتَّى المَوْتَ فِيكِ وَلَوْ ذُمَّا

* * *

رثـــــاء

للمغفور له

الوزير الفارس الشاعر محمود باشا سامى البارودى

مُصَـابُـكَ حَيًّـا عَـرَا جَعْفَـرَا   وَخَطْبُـكَ مَيْتًـا عَـرَا قَيْصَرَا
رُزِئْنَـاكَ لَمْ يُغْـنِ مِنْـكَ البَيَـانُ   وَلَمْ يَعْصِمِ الجَاهُ أَنْ تُقْبَرَا
وَهَـذِى النِّـهَايَةُ عُقْبَـى النُّهَـى   وَذَاكَ الثَّـرَاءُ لِهَذَا الثَّـرى
وَغَـايَـةُ مَجْدِكَ فِي العَـالَمِينَ إِذَا عَـرَفُـوا الفَضْـلَ أَنْ تُشْكَـرَا
وَآخِـرُ بَـأْسِـكَ أَنْ يُعْتَـدَى   عَلَيْـكَ دَفِينًـا وَأَنْ يُفْتَرَى [1]
أَيُهْتَـكُ عَنْهَـا قَمِيـصُ المُرُوءَةِ تَحْتَ البِلَى   مَنْـعَ أَنْ تُسْتَرَا ؟
وَتَثْـوِى المُرُوءَةُ فِى دَارِهِـمْ   وَتَـرْضَـى المُرُوءَةُ أَنْ تُـذْكَـرَا ؟
كَـذَا انْكَشَـفَ الـدَّهْـرُ لِلنَّـاسِ فِيـكَ عَـنْ قَـاهِـرٍ عَـزَّ أَنْ يُقْهَـرَا

حَلِيـمٍ تَـرَاكًـا بِـإِقْبَـالِـهِ   ضَرُوبٍ دِرَاكًـا مَتَـى أَدْبَـرَا
لِأَمْـرٍ صَفَـا لَـكَ حِينَ صَفَـا   وَكَـدَّرَ وِرْدَكَ إِذْ كُـدِّرَا
يَقُـولُ بِـأَحْـدَاثِـهِ الـوَاعِظَـاتِ لِمَنْ هَمَّ بِالزَّهْـوِ :   أَطْرِقْ كَرَى [2]

(١) إشارة إلى أناس طعنوا عليه بعد وفاته .
(٢) مثل ضربته العرب للخفض من كبرياء المتكبر .

حَبَاكَ زَمَانًا بِجَاهِ المُلُو ... كِ وَبَطْشِ الأَسَاطِينِ مُسْتَوْزَرَا
وَفَخْرِ الغُزَاةِ قُرُومِ السَّرا ... يَا وَفِكْرِ الهُدَاةِ نُجُومِ السُّرَى
وَعَزْمٍ يَكُونُ عَلَى أُمَّةٍ ... قَتَامًا وَفِي أُمَّةٍ نَيِّرَا
فَكُنْتَ كَمَا تَبْتَغِي عِزَّةً ... وَكُنْتَ كَمَا تَرْتَضِي مَظْهَرَا
وَكُنْتَ مَعًا فَارِسًا شَاعِرًا ... وَكُنْتَ مَعًا نَدُسًا قَسْوَرَا (١)
جَمِيعَ المَزَايَا فَمَا لِلبَيَا ... نِ وَمَا لِلغِيَاثِ وَمَا لِلقِرَى ؟!
نَظِيرُكَ مُبْتَكِرًا مُبْدِعًا ... شِهَابًا سَنِيًّا نَدًى مُمْطِرَا
نَظَمْتَ المَعَالِيَ نَظْمَ المَعَانِي ... فَفَتْحُ الكَلَامِ كَفَتْحِ القُرَى
وَطعْنُ السِّنَانِ كَنَفْثِ اليَرَاعِ ... وَكُلُّهُمَا بِالنُّهَى حُبِّرَا
وَضَمُّ الجُيُوشِ كَنَسْقِ القَرِيضِ ... وَتَقْسِيمِهِ أَشْطُرًا أَشْطُرَا
وَسَهْلُ القِتَالِ كَطِرْسٍ بِهِ ... يُسَطِّرُ بَأْسُكَ مَا سَطَّرَا
بِنَقْطِ الجَمَاجِمِ إِعْجَامُهُ ... وَإِهْمَالُهُ جَوْبُهُ مُقْفِرَا
وَتَفْوِيفُهُ بِنِعَالِ الجِيَا ... دِ وَتَذْبِيجُهُ بِدَمٍ أَحْمَرَا
فَيَا غَازِيًا ذَاكَ إِعْجَازُهُ ... وَيَا نَاظِمًا ذَاكَ مَا صَوَّرَا
أَتِلْكَ مِنَ الكَلِمِ الذَّاكِيَا ... تِ تَسِيلُ النُّفُوسُ بِهَا أَنْهُرَا ؟
شَقَائِقُ آيَاتِكَ النَّادِيَا ... تِ رَحِيقًا مِنَ الأُنْسِ أَوْ كَوْثَرَا
أَمِ الصَّافِيَاتِ شَوَافِي الأُوَا ... مِ بِمَا تَحْتَهَا مِنْ زُلَالٍ جَرَى ؟
أَمِ الجَالِيَاتِ يُبِنَّ لَنَا ... مِنَ الغَيْبِ كُلَّ ضَمِيرٍ سَرَى ؟

(١) النَّدُسُ : الذى يُخالط الناسَ دون أن يثقل عليهم .

أَمِ المُطْـــرِبَـــاتِ يُشَنِّفْنَنَـــا ... بِشَـــدْوِ الهَزَارِ وَقَـــدْ بَكَّـــرَا
أَمِ المُرْسَـــلاَتِ هُـــدًى لِلأَنَـــا ... مِ حَقَـــائِقُ مُـودَعَـــةٌ جَـوْهَـــرَا
فَهَـــلْ كَـانَ أَفْـرَسَ مِنْـكَ فَتًـى ؟ ... وَهَـــلْ كَـانَ مِنْـكَ فَتًـى أَشْعَـــرَا ؟
كِـلاَ المَفْخَرَيْـــنِ يَـــرَاعًـا وَسَيْفًـا ... دَعَـا تَـــاجَـــهُ لَـكَ مُسْتَـــأْثِـرَا
فَتَـــاجُ عَصَـــاكَ وَتَـــاجُ عَـــلاَ ... كَ وَكَـــانَ الأَحَـــقَّ بِـــأَنْ يُـــؤْثَـــرَا

* * *

فَلَمَّا رَقِيـــتَ إِلَى المُنْتَهَـــى ... وَكِـــدْتَ تُجَاوِزُ مَـــا قُـــدِّرَا
رَمَـاكَ الـــزَّمَـانُ بِـــأَحْـدَاثِـهِ ... مُجَيَّشَـــةً فَـــانْبَرَتْ وَانْبَرَى
أَبَـــانَ المُحِبِّينَ وَالآلَ عَنْـــكَ ... وَأَقْصَـــى المَوَالِيَ وَالعَسْكَـــرَا
وَأَسْكَـتَ أَفْـرَاسَـكَ الصَّـاهِـلاَتِ ... وَأَصْمَـتَ صَمْصَـامَـكَ الأَبْتَرَا (١)
وَأَخْـرَسَ مَـنْ قَـالَ : لِلهِ أَنْـتَ ، ... وَأَبْكَـمَ حَـوْلَـكَ مَـنْ كَبَّرَا
وَسَكَّـــنَ رَوْعَ الفَـــلاَ مُجْفِـلاَتٍ ... وَأَمَّـــنَ شَـــامِخَهَـــا أَصْعَـــرَا
وَنَفَّـسَ كَـرْبَ الظِّبَـا لاَ فِتَـاتٍ ... وَرَوَّحَ أَيِّلَهَـــــا أَصْـــــوَرَا
وَأَلْـوَى عَلَيْـكَ فَـأَدْمَـى وَأَصْلَى ... وَصَـــالَ وَطَـــالَ وَمَـــا أَقْصَرَا

* * *

رَمَـى بِـكَ فِي السِّجْـنِ مِـنْ حَـالِـقٍ ... أَلِيـفَ الجُنَـاةِ طَـرِيـحَ العَـرَا (٢)
وَأَثْخَـنَ جُـرْحًـا فَـأَقْصَـاكَ عَـنْ ... ثَـــرَى مِصْرَ مُجْتَنَبًـــا مُـــزْدَرَى

---

(١) الصمصام الأبتر : السيف القاطع الصارم .
(٢) العرا : العراء ، وهو الفضاء لا يُستتر فيه بشيء .

وَزَادَكَ ضَيْماً فَحَجَّبَ عَنْ عُيُونِكَ ضَوْءَ الضُّحَى مُسْفِرَا
وَجَازَ النَّكَالَ فَأَرْدَى ابْنَتَيْكَ كَمَا يُذْبَحُ الذِّبْحُ أَوْ أَنْكَرَا
وَلَكِنْ أَبَى لَكَ ذَاكَ الإِبَاءُ إِلاَّ الثَّبَاتَ وَأَنْ تَصْبِرَا
وَهَلْ فِي الأَسَى غَيْرُ صَدْعِ الحَشَى ؟ وَتَدْمِيَةِ الجَفْنِ مُسْتَعْبِرَا ؟
وَتَهْوِينَ نَفْسٍ لَدَى خَصْمِهَا بِلاَ طَائِلٍ غَيْرَ أَنْ تَصْغُرَا ؟
فَلَمْ تَنْتَقِصْكَ الرَّزَايَا وَلَكِنْ أَعَادَتْكَ مِحْنَتُهَا أَكْبَرَا
وَرَدَّ بَيَاضُ الشَّيْبِ ثَنَاءَكَ أَجْلَى بَهَاءً وَقَدْ طُهِّرَا
فَمَا كَانَ سِجْنُكَ إِلا قَرَاراً وَقَدْ تَعِبَ الجِدُّ أَنْ يَسْهَرَا
وَلاَ النَّفْيُ إِلاَّ خَلاَءً أَعَدْتَ بِهِ زَمَنَ الأَدَبِ الأَزْهَرَا
وَلاَ الثُّكْلُ إِلاَّ لِتَأْسَى أَسَاكَ وَتَبْكِي بُكَاءً لُيُوثِ الشَّرَى
وَلاَ الغَضُّ عَمَّا تَرَاهُ العُيُونُ إِلاَّ وَقَدْ سَاءَ أَنْ يُنْظَرَا
إِذَا وَسِعَ الكَوْنَ فِكْرُ امْرِىءٍ فَلاَ بَأْسَ بِالطَّرْفِ أَنْ يُحْسَرَا
عَلَى الشَّمْسِ أَنْ تَهْدِيَ المُبْصِرِينَ وَلَيْسَ عَلَى الشَّمْسِ أَنْ تُبْصِرَا

* * *

مصر ومصطفى كامل

«مِصْرُ» العَزِيزَةُ قَدْ ذَكَرْتُ لَكَ اسْمَهَا   وَأَرَى تُرَابَكَ مِنْ حَنِينٍ قَدْ هَفَا
وَكَأَنَّنِي بِالقَبْرِ أَصْبَحَ مِنْبَرًا   وَكَأَنَّنِي بِكَ مُوشِكٌ أَنْ تَهْتِفَا
«مِصْرُ» الَّتِي لَمْ تَحْظَ مِنْ نُجَبَائِهَا   بِأَعَزَّ مِنْكَ ، وَلَمْ تَعِزَّ بِأَحْصَفَا
«مِصْرُ» الَّتِي لَمْ تَبْغِ إِلاَّ نَفْعَهَا   فِي الحَالَتَيْنِ مُلاَيِنًا وَمُعَنِّفَا
«مِصْرُ» الَّتِي غَسَلَتْ يَدَاكَ جِرَاحَهَا   - بِصَبِيبِ دَمْعِكَ جَارِيًا مُسْتَنْزَفَا
«مِصْرُ» الَّتِي كَافَحْتَ لُدَّ عُدَاتِهَا   مُتَصَدِّرًا لِرُمَاتِهَا مُسْتَهْدِفَا
«مِصْرُ» الَّتِي سُقْتَ الجُيُوشَ مَنَاقِبًا   وَمُنًى لِتَكْفِيَهَا المُغِيرَ المُجْحِفَا
«مِصْرُ» الَّتِي أَحْبَبْتَهَا الحُبَّ الَّذِي   بَلَغَ الفِدَاءَ نَزَاهَةً وَتَعَفُّفَا
حَتَّى مَضَيْتَ كَمَا ابْتَغَيْتَ مُؤَلِّفًا   مِنْ شَمْلِهَا مَا لَمْ يَكُنْ لِيُؤَلَّفَا
أُمْنِيَّةٌ أَعْيَتْ خِصَالُكَ دُونَهَا   لَوْ لَمْ يُضَافِرْهَا ذَاكَ فَيُسْعِفَا
وَهِيَ الَّتِي لَوْ قُسِّمَتْ لَنَا بِهَا   شَعْبٌ يَعِزُّ بِنَفْسِهِ مُسْتَنْصِفَا

* * *

مَنْ كَانَ أَجْرَأَ مِنْكَ يَوْمَ كَرِيهَةٍ   بِالحَقِّ ، لاَ شَكِسًا وَلاَ مُتَصَلِّفَا ؟

مَـنْ كَـانَ أَقْـدَرَ مِنْـكَ تَصْرِيفًـا لِمَا ... يُعْيِـى الحَكِيـمَ مُـدَبِّـرًا وَمُصَرِّفًـا ؟
مَـنْ كَانَ أَطْهَـرَ مِنْكَ خُلُقًـا جَامِعًـا ... فِيـهِ مَهِيـبَ الطَّبْـعِ وَالمُسْتَظْـرَفَـا ؟
مَـنْ كَـانَ أَسْمَـحَ مِنْـكَ مَنَّـاعًـا لِمَا ... تَهْوَى وَمِعْطَـاءً لِغَيْرِكَ مُسْرِفَــا ؟
مَـنْ كَـانَ أَصْدَقَ مِنْـكَ لاَ مُتَنَصِّـلاً ... مِمَّـا تَقُـولُ وَلاَ تُعَـاهِـدُ مُخْلِفَـا ؟

* * *

يَـا مَـنْ نَعَى تِلْـكَ الفَضَـائِلَ وَالعُلَى ... أَغَـدَتْ مَعَالِمُهُـنَّ قَـاعًا صَفْصَفَـا ؟
لاَ لاَ وَحَقِّـكَ يَـا شَهِيـدَ وَفَـائِهِ ... وَرَجَـائِهِ كَـذَبَ النَّعِـيُّ وَأَرْجَفَـا
مَا أَنْـتَ بِالرَّجُـلِ الَّذِى يُمسِـى وَقَدْ ... مُلِىءَ الـوُجُـودُ بِهِ وَيُصْبِـحُ قَـدْ عَفَـا
إِنِّــى أَرَاكَ وَلاَ تَــزَالُ كَعَهْــدِنَــا ... بِـكَ فِى جَهَـادِكَ أَوْ أَشَـدَّ وَأَشْعَفَـا
ثَــابِــرْ عَلَى تِلْــكَ العَــزَائِمِ ذَائِدًا ... عَنْ «مِصْرَ» تَضْرِبُ فِى البِلاَدِ مُطَـوِّفَا
أَصْـدِرْ صَحَـائِفَـكَ الَّتِـى تُحْيِـى بِهَا ... نِضْـوَ الطَّـرِيـقِ وَتَـدْفَـعُ المُتَخَلِّفَـا
تَجْرِى بِهَا الأَنْهَارُ وَهْــىَ دَوَافِــقٌ ... هِمَمًا وَتُـوشِـكُ أَنْ تَطُـمَّ فَتَجْـرِفَـا
وَتَكَــادُ أَسْطُـرُهَـا تَهُبُّ نَـوَاطِقًـا ... وَيَكَـادُ يَعْـزِفُ كُلُّ حَـرْفٍ مَعْـزِفَـا
فَـإِذَا حَنَـوْتَ عَلَى الحِمَـى مُتَحَبِّبًـا ... فَهُــوَ النَّسِيــمُ وَقَـدْ ذَكَـا وَتَلَطفَـا
وَكَــأَنَّمَا الأَلْفَــاظُ مِمَّــا خَفَّفَــتْ ... نَقَـشَ المِدَادُ رُسُــومَهَـا وَتَخَفَّفَـا

* * *

صورة « سعد »

يبَدو مُنيفًا على هامِ الرّجالِ كَما

يَبْدو مُنيفًا على هامِ الرُّبى عَلَمُ

مُجَلّلاً همّه بالشّيْبِ لِمّتَهُ

وَقَدْ تَشيبُ بأدْنى همّهِ اللّمَمُ

وَللخُطُوطِ عِرَاضًا فَوْقَ جَبْهَتِهِ

شِبهُ المدَارجِ قدْ حُفّتْ بها القِممُ

عيناه كالكوكبينِ السّاطعينِ زَهَا

سَنَاهُما بسنىً للفِكرِ يضْطَرِمُ

وَما الغُصُون تَدَلّى عارِضَاه بها

إلا الشّجُون جَلا أشباحَها الأَدَمُ [1]

إنْ تَقتَرِبْ شَفَتَاه وَالزّمان رِضًا

تَرَقْرَقَتْ منهُما الآيات وَالحِكَمُ

(١) الأدم : البشرة .

وَإنْ يُفرّجهُما فى موْقفٍ غَضَبٌ
راعَتْكَ فُوّهَةُ البُرْكانِ وَالحمَمُ
بينَ الصّلابِ الحَوَانى مِنْ أضَالِعِهِ
قَلْبٌ كبيرٌ لرَيْبِ الدّهرِ لايجمُ (١)
يلين رفقًا ، فإنْ جَافَى وَصُكّ بِهِ
صَرفُ الزّمانِ تَوَلّى وَهوَ مُنهشمُ
مُتَمّمُ الأسرِ ، رَحْب الصّدرِ ، بارِزه
مُقوّمُ الأزْرِ ، طَاوِى الكَشحِ ، منهضمُ
فيا لهُ هيكلاً مِلءُ العُيونِ سَطَا
بهِ الرّدَى فاحتوتَهُ دونها الرُّجُمُ (٢)

* * *

(١) يجم : يسكن من فزع .
(٢) الرجم : القبر . وهى فى الأصل التى تنصب على القبر .

الشـاعـــر
يوقع على وتره الأخير
لحن الرضا وسكينة النفس

ماذَا يُريدُ الشّعْرُ منّى ؟
أخْنَى عليهِ عُلُوّ سنّى !
هَلْ كانَ ما ذَهَبَتْ بِهِ الـ
أيّامُ مِنْ أدَبى وَفنّى ؟
أحْسَنْتُ ظنىّ ، وَاللّيَا
لى لَمْ تُوَافِقْ حُسْنَ ظَنّى
وَرَجَعْتُ مِنْ سُوقِ عرَضْـ
ـتُ بضاعتى فيها بغبنِ
أفكانَ ذَلكَ ذَنْبها
أمْ كانَ ذنبى؟ لا تَسَلنى !
خَمَدَتْ بىَ النّارُ التى
رَفَعَتْ بعينِ العصرِ شَأنى
هىَ شُعلَةٌ كانَتْ تُثيرُ قَريحتى وَتُنيرُ ذِهْنى
أيّامَ لى طَرَبٌ وَقَلبى مَوْقِعُ السّهْمِ المُرِنّ

لا تَنْدُبَنّى للِعَظَا

ثم بَعْدَها ، لا تَنْدُبَنّى !

يا مَنْ يحمّلُنى تَكَا

ليفَ الشَّبَابِ ارْفُقْ بِوَهْنى

زَمَنى تَوَلَّى والأُلَى

عَمَرُوهُ مِنْ صَحْبى ، فَدَعْنى

وَلَّى الرّبيعُ وَجَف عُو

دِى وَانْقَضَى عَهْدُ التّغَنّى

وَعَدِمْتُ لذّاتِ الرُّؤَى

وَعَدِمْتُ لَذّاتِ التّمَنّى

إنّى خَتَمْتُ العَيْشَ فى

وَادى المخيلَةِ ، أوْ كأنّى (١)

فإذا بَدَتْ لكَ هِمّةٌ

مِنْ دَائبٍ يَشْقى وَيَبْنى

فَعَذيرُهُ خَوْفُ التّشبّهِ بالرُّحَى من غيرِ طِحْنِ

وَيَكُدّ كَدّ النّحْلِ وَهَى لغيرِها تسعى وَتجنى

أرْضَى بأنْ تُقْضَى مُنىً

للآخَرينَ وَإنْ عَدَتْنى

أَخى مَكَانى لِلّذِى

يَسْمُو إليهِ بغيرِ حُزْنِ

(١) المخيلة : الظن ، يريد : الوهم والتخيل .

وَلَقَدْ أَهَشّ لِمَنْ يُطَا

ولُنى وَإنْ يكُ تحتَ ضِبْنى (١)

إنّ الحقيقة ، حينَ نَبلُغُها ، لَتَكفينا وَتُغنى

فيها الجلالُ بكُلِّ مَعْناهُ ، وفيها كُلُّ حُسْنِ

تَتَشَابَهُ التّركاتُ فى

أنّا نُعِدّ لها وَنَقْنى (٢)

فإذا تَوَلّينا فَهَلْ

أَسْماؤُنا مِنّا ستُغنى ؟

إنْ نَبْقَ وَالأَرْواحُ قَدْ

ذَهَبَتْ ، فَما الأسماءُ تَغْنى ؟

لوْ لَمْ يَكُنْ فى الذّكْرِ للـ

أعقابِ نَفْعٌ لَمْ يَشُقْنى

أمّا الجَزَاءُ فإنّنِى استوفَيْتُ منهُ فوْقَ وزْنى

فى الحاضرِ اسْتَسْلَفْتُ مَا

سَيَقُولُهُ التّالُونَ عَنّى (٣)

* * *

(٢) الضبن : ما بين الكشح والإبط ، يريد بمن تحت ضبنه : من هو دونه متقاصر عنه .

(٢) نقنى : نحفظ وندخر .

(٣) استسلفته : استقدمته ونلته فى الحاضر .

شعــر منثــور

كلمات أسف

(أنشدت فى حفلة تأبين للمرحوم الشيخ إبراهيم اليازجى)

أَطْلِقْ عَبَرَاتِكَ مِنْ حُكْمِ الوَزْنِ وَقَيْدِ القَافِيَهْ
وَصَعِّدْ زَفَرَاتِكَ غَيْرَ مُقَطَّعَةٍ عَرُوضًا وَلاَ مَحْبُوسَةً فِى نِظَامْ
قُلْ وَقَدْ نَظَرْتَ إِلى المَوْتِ وَهُوَ قَاتِلٌ عَامِدْ
مَا تُوحِيهِ إِلَيْكَ النَّفْسُ لَدَى رُؤْيَةِ إِثْمِهِ الرَّائِعْ
لاَ عَتْبَ عَلَى الحِمَامْ . هُوَ الظُّلْمَةُ وَالحَيَاةُ النُّورْ
هُوَ الأَصْلُ الأَزَلِىُّ الأَبَدِىُّ . وَالنُّورُ حَادِثٌ زَائِلْ
فَإِذَا أَزْهَرَ شَارِقٌ فِى دُجُنَّةٍ فَهُوَ يُكافِحُهَا وَيُنَافِيهَا
إِلى أَنْ يَنْقَضِىَ سَبَبُهُ فَيَتَضَاءَلَ ثُمَّ يَتَلاَشَى فِيهَا

* * *

أَلمائِتُ وَرَاءَ المَيتْ . أَتَبْكِى مَيْتًا وَأَنْتَ مَائِتْ ؟
هَلِ القَطَرَاتُ الهابِطَةُ فِى العُمْقِ دَمْعَةٌ تَجْرِى إِثْرَ دَمْعَهْ ؟
لَئِنْ مَاتَ اليَازِجِىُّ ، فَقَدْ مَاتَ مِنْ قَبْلِهِ النَّبِيُّونْ

وَمَاتَتْ أُمَمٌ أَهَانَ الرَّدَى أَعِزَّاءَهَا وَصَغَّرَ كُبَرَاءَهَا

فَلِمَ تَبْكُونَ رَاحِلاً أَيُّهَا الرَّاحِلُونَ ؟ أَأَنْتُمْ بَعْدَهُ فِي خُلُودْ ؟

أَمْ هِيَ دُمُوعٌ يُقْرِضُهَا السَّلَفْ ، لِيَفِيَهُمْ إِيَّاهَا الخَلَفْ ؟

لاَ . . وَإِنَّمَا نَبْكِي مِنَّا بَعْضَنَا الَّذِي ذَهَبَ مَعَ الذَّاهِبْ

نَبْكِي مَغَانِمَنَا مِنْ أُنْسِهِ وَعِلْمِهِ وَأَخْلاَقِهْ

نَبْكِي مَفْقُودَنَا مِنْ مَعَاهِدِهِ فِي المَكَانِ وَالزَّمَانْ

نَبْكِي مَا أَلِفْنَاهُ مِنْ مَشْهُودِهِ وَمَسْمُوعِهْ

* * *

فَيَا مَنْ يُكْبِرُ جَزَعَنَا عَلَى إِبْرَاهِيمْ ! إِنَّ المَيِّتَ يُبْكَى بِمِقْدَارِهْ

وَإِنَّ النَّفْسَ بِمَا فُطِرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الكَلَفِ بِمَصَالِحِهَا

لاَ تَأْسَفُ عَلَى الشَّمْسِ المُتَوارِيَةِ بِالحِجَابْ

أَسَفَهَا عَلَى أَيِّ نَجْمٍ يَتَوَارَى ، وَلَوْ كَانَ فِي فُلْكِهِ شَمْسَا

* * *

أَكَانَ اليَازِجِيُّ مِنْ أَرْوَاحِنَا بِمَنْزِلَةِ الشَّمْسِ مِنَ العُيُونْ ؟

فَيَكُونُ حِدَادُنَا عَلَيْهِ حِدَادَ اللَّيْلِ عَلَى النَّهَارْ ؟

نَعَمْ ! كَانَ بِعِلْمِهِ كَالشَّمْسِ إِنَارَةً وَإِشْرَاقَا

وَلَكِنَّهُ كَانَ كَالرَّوْضَةِ بِأَفَانِينِ آدَابِهِ وَمَعَارِفِهْ

سِوَى أَنَّهُ كَانَ كَالزَّهْرَةِ بِوَدَاعَتِهِ ، وَعُرْفِهِ ، وَنَفْعِ مَا يَعْصِرُ قَلَمُهْ

وَلَمْ تَكُنْ أَشِعَّتُهُ جَارِحَةً لِلعُيُونِ بِقِحَتِهَا ، وَإِنَّمَا كَانَتْ بَلسَماً لِلعُيُونْ

وَلَمْ تَكُنْ ثِمَارُهُ وَأَشْجَارُهُ تَنْسِيقَ تِجَارَةٍ وَلاَ زِينَةً مُفَاخَرَةْ
وَلَمْ يَكُنْ عَرْفُهُ دَعْوَةً لِلإِعْجَابِ بِهِ ، بَلْ نَسْمَةَ رُوحٍ مُتَذَكِّيَهْ

* * *

شَبَحٌ نَحِيلٌ ضَمَّ قَلْبًا رَقِيقًا وَعَقْلاً كَبِيرًا
فَقَدْنَاهُ ، فَفَقَدْنَا لُغَةً فِي يَرَاعْ
فَقَدْنَا زَهْرَةً ذَابِلَةً تُنْذِرُ بِذُبُولِ الحَدِيقَةْ
فَقَدْنَا حَدِيقَةً مُتَجَرِّدَةً تُنْبِىءُ بِزَوَالِ الرَّبِيعْ
فَقَدْنَا رَبِيعًا انْقَضَى بِهِ عَصْرٌ فِي عُمْرِ رَجُلْ
فَقَدْنَا شَمْسًا أَطْلَعَتْ ذَلِكَ الرَّبِيعَ وَزَانَتْهُ بِأَنْوَارِهَا وَأَنْدَائِهَا
ثُمَّ غَرَبَتْ عَنْهُ بلاَ تَدَرُّجٍ فِي الاِنْتِقَالِ وَمَالَتْ إِلى الشِّتَاءْ .

* * *

اقرأ فى هذه السلسلة



عربية للطباعة والنشر

7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين

تليفون : 3256098 - 3251043